سلسلة القصة العربية المعاصرة (119)

أرضٌ تطرحُ الغضبَ

13 قصة قصيرة

جمال الجزيري

دار كتابات جديدة للنشر الإلكتروني

سلسلة القصة العربية المعاصرة (119)

سلسلة تصدر عن دار كتابات جديدة للنشر الإلكتروني

المؤلف: جمال الجزيري

العنوان: أرضٌ تطرحُ الغضبَ: 13 قصة قصيرة

التصنيف: قصص قصيرة [قصة، أدب عربي معاصر، فن السرد]

الطبعة الأولى: فبراير 2016

تصميم الغلاف: المبدع محمود الرجبي

تصميم الكتاب ومراجعته لغويا: د. جمال الجزيري

الناشر: دار كتابات جديدة للنشر الإلكتروني

دار نشر إلكترونية مجانية لا تهدف للربح

للمراسلة لنشر أعمالكم في السلاسل المختلفة التي تصدرها الدار، الرجاء قراءة التعريف بمجموعة دار كتابات جديدة للنشر الإلكتروني لمعرفة مواصفات تجهيز الملف:

https://www.facebook.com/groups/Ketabat.Jadidah.Ebook.Publishers/

وإرسال الملف وفقا لشروط النشر على إيميل د. جمال الجزيري أو على الخاص في صفحته على الفيسبوك:

elgezeery@gmail.com

https://www.facebook.com/gamal.elgezeery

إشارة

كُتبتْ قصص هذه المجموعة في الفترة 2000-2010

غريب

- قدم غريبة تدب على أرض قريتنا!

- من هذا الغريب؟

- يشبه عم عارف.

- أمازال حيا؟

- حي أم ميت؟ لا يهمنا في شيء.

- يكفيه عارا أنه كتب عن قريتنا وفضحنا.

- يقول عنه شيخ الجامع إنه علماني.

- وما علماني هذه؟

- عار وفضيحة.

كانت صدمة أنامت حنيني وأنا أقترب من الوجوه الجالسة بجانب الطريق وقد اقتربتُ منهم ولم ينهضوا حتى ليعرفوا من القادم نحوهم. وجوه لا أعرفها، لكنها كانت توحي لي ببعض الشبه مع وجوه قديمة. ألقيتُ عليهم السلام،

فردُّوه ببطءٍ. أقدم بعضُهم نحوي في تباطؤ شديد. لم تمتد أياديهم لتحتضنني. قلت في سري:

- لا يهم الآن. البعيد عن العين.

وعندما اقتربوا مني، بدؤوا يتحدثون فيما بينهم كأنني غير موجود بالمرة:

- لا، ليس هو عم عارف.

- شكله غير الصور القديمة التي كانت مع جدتي.

- يخلق من الشبه أربعين.

- يا جماعة، هو نفسه عم عارف.

- وما الذي جاء به الآن؟

- يبدو أنه افتقر وجاء ليأخذ نصيبه في الأرض.

- هل تكفينا نحن حتى يجيء ليأخذ رُبْعَها؟

كنت واقفا في ذهول أنصت إلى الأصوات التي لم أسمعها من قبل. أفاقني من صدمتي قليلا السؤال الأخير، فنصيبي في الأرض الذي لا أفكر أصلا في أخذه لا يصل

إلـى الربـع مطلقـا، مـن المفتـرض أن تـوزَّع الأرض علـى سبعة، أربعة أولاد وثلاث بنات. يبدو أنهم أخرجوا البنات من حساباتهم.

انتفضتْ صدمتي فجأة عندما سمعت أحدهم يقول:

- عم عارف مات منذ زمن

فأنا أتصل دوما بأخواتي البنات لأنهن هن اللاتي يرحبن بي دون مقابل أو توجيه مجاني لاتهامات لا تنتهي. كنت عندما أتصل بإخوتي يتهمونني دائما بأنني مقصِّر في حقهم ولا أسأل عنهم، بالرغم من أن أيا منهم لم يفكر قط في أن يرفع سماعة الهاتف ويتصل بي أو حتى يرن لي رنة وأنا أتصل به. نغمة واحدة كنت أسمعها على الدوام:

- لماذا لا ترسل لنا جزءا من رزقك؟ إنك تعيش في "مصر" و"مصر" رزقها واسع. يبدو أن "مصر" جعلتك لا تعرف الأصول.

هززت رأسي بسرعة علِّي أفيق وأرى نفسي واقفا وحيدا ولا أسمع أصواتا بجانبي. لكن الأصوات لم تزل

تزاحم بعضها البعض كأنها تريد أن تدفنني في الأرض حيًّا. خمَّنتُ من جدلهم حولي أنهم أبناء إخوتي الذين تركتهم صغارا عندما رحلت لألتحق بوظيفتي في القاهرة. كَبَتُّ مشاعر العداء النافرة من كلامهم ومددتُ يدي نحوهم مُتَمَنِّيًا أن أحضنهم.

أحسست ببرود في أحضانهم اللامبالية. وعندما أدركت عدم جدوى تسوُّلِ حضن دافئ يعوِّضني عن حضن عيالي، جلستُ بجانب الغيط حتى يمكنني أن أغمض عينيَّ وأسترجع مشاهدَ قديمةً.

رفعت وجهي. كانت الخضرة شاحبة كأنني أرى شحوبها لأول مرة. احتدَّ الشبابُ من حولي قائلين:

- ما الذي أدخلك أرضنا؟

كان سؤالهم أشبه بالطعنة غير المتوقعة. حاولت أن أفتح حوارا وديا معهم وقلت:

- أبناء من أنتم يا شباب؟

فردُّوا في صوت واحد:

- ومن أنت يا من تركك الشبابُ؟

- أنا عارف.

لكنهم ردُّوا على إجابتي بسؤال:

- عارف ماذا؟

كنت أظن أن اسمي وحده كافٍ لأن يكون ذا معنى بالنسبة لهم. لكن اتضح أنه بلا معنى. ومع ذلك أخذت سؤالهم على محمل الجد وأجبت عليه:

- أنا عمكم عارف إن كنتم أنتم أبناء إخوتي.

تبادلوا النظرات فيما بينهم، ثم رحَّبوا بي ترحيبا أحسست بأنه جافٌّ جفاف شجرة امتدت جذورها في الأرض لتصطدم بحجر أو طبقة صخرية فتموت دون رجعة.

- أهلا بك يا عم عارف. تفضَّل

قالها أحدهم وساروا أمامي على الطريق بين الغيطان، فسرت وراءهم حاملا حقيبتي وأنا أحس بأنها ازدادت ثقلا وكادت تُسقطني على الأرض.

رحب بي إخوتي:

ـ أوحشتنا يا عارف.

ـ أين أنت منذ زمن؟

ـ يا رجل، أوشكنا أن ننسى شكلك.

ـ حمدا لله على السلامة يا أستاذ عارف.

ـ لا بد أنك أحضرت لنا ذهبا مادامت ليست معك سوى هذه الحقيبة.

ـ أنا شخصيا سَأَقْبَلُ المالَ إذا لم تكن قد أحضرت لي ذهبا.

ـ الأولاد ينتظرونك منذ سنين ويتلهفون على رؤيتك.

قلت في نفسي:

- ذلك ظاهر عليهم جدا. لقد أوشكوا أن يرموني بالطوب!

وما إن جلست حتى سألت عن أمي، فلقد أخبرتني أختي بأن أمي لم تعد تقيم معها ورجعت لتقيم مع إخوتي بعد أن طلبوا منها مسامحتهم. قالوا لي في نفس واحد:

- دعك من أمك الآن وأَرِنَا ماذا أحضرت لنا.

حاولت أن أخلق جوا من المفاجأة والدهشة وطلبت منهم أن يغمضوا أعينهم بالرغم من أن هذا السلوك لم يكن متبعا في القرية قبل رحيلي. لم أهتم كثيرا بعيونهم نصف المفتوحة ونصف المغلقة، ولم أصادر على رغبتهم في معرفة ماذا أحضرت لهم. فتحت حقيبتي وأخرجت كتبي وأنا أمدُّها لهم في قمة سروري متلهفا على إعجابهم الذي لا بد سيبدونه لي وفخرهم الذي سيعلو فوق كل هذه الماديات التي يتحدثون عنها.

- ما هذا الذي أحضرته؟

- أحضرت لكم كتبي.

- الأولاد لديهم كتب بالمدرسة تكفيهم وزيادة.

- إنها كتبي أنا. أنا من كتبتها. انظروا إلى اسمي.

- وماذا نفعل باسمك؟ نعرف اسمك جيدا.

- انظروا.

وما إن نظروا حتى انهالوا عليَّ بألسنتهم:

- أتركت اسم أبيك وجدك ولصقت اسمك بجدك الثاني؟

- لم يكن لأبيك حق عندما مات وهو يدعو لك.

- اشرب كوب الشاي قبلما يبرد. يبدو أن القطار الذي حجزت فيه لترجع إلى "مصر" قَرُبَ موعدُه.

قلت في نفسي:

- لا بأس. عندما أحتضن أمي سأنسى كل شيء.

عاودت السؤال عنها فقالوا لي بكل برود:

- أمك التي لك هنا ماتت. إذا كنت لا تريد أن تكمل الشاي دعه واستأذنْ دون حرج.

أحسست في صدري بحرقة ونار لم أجد شيئا يبردهما. أقفلت حقيبتي بعد أن تركت لهم نسخة من كتبي وحملتها فوق ظهري وسرت دون أن أفكر في وسيلة المواصلات التي لن أجدها. كل ما كان يهمني أن أذهب إلى قبر أمي علَّ إحساسي بها يطفئ ناري وبعدها سأذهب لزيارة البنات.

أخرجت هاتفي واتصلت بأختي الكبرى معاتبا إياها لأنها لم تخبرني بموت أمي.

- سامحني يا عارف. لكنها ماتت بعد أن ماتت زوجتك وعيالك في الحادث ولم أشأ أن يتثاقل الهم عليك فتضيع منَّا.

دعتني لزيارتها أولا ثم الذهاب معي لزيارة أمي، لكنني لم أرَ إلا صورة أمي ساعتها ولم يوقفني إلا صوت صغير يناديني:

- معذرة يا عم عارف. أبي وعمَّاي يتشاجرون حتى مع أنفسهم

وارتمى في حضني قائلا:

- سأذهب معك لزيارة جدتي. وضعتُ كتبك في الصندوق على السطح. سامحني لم أتعلم قراءة الكتب في المدرسة حتى الآن.

أحسستُ بدفء صدره برغم البرد. لم أشأ أن أسأله عن اسم أبيه، فيكفيه أنه حميم وأنه ابن أخ لي لم يعد موجودا. ربَّتُّ على ظهره وسار بجانبي كصديق حميم.

3-10 مارس 2010

تلاطُم

"السلام عليكم ورحمة الله"، ختمت الصلاة وحمدت الله واستغفرته في آن، فأنا لا أحب أن أؤم أحدا في الصلاة، لكن العمال يبدو أنهم أحسوا بوجوب إمامتي للصلاة بهم، فرضخت لهم، داعيا الله أن ييسرها وأن يتمم البناء على خير. وما أن فرغنا من الدعاء والحمد، وجدتهم يلتفتون إليّ طالبين مني أن أحضر لهم الغداء. شعرتُ بخجل مفاجئ كأن الحميمية لم تكن تسري بيننا منذ دقائق. طمأنتهم. لكنهم تحسسوا بطونهم قائلين:

- متى يا خال؟

تذكرت العمال الذين كانوا يبنون أساس البيت قديما أو الذين كانوا يعملون معنا في الغيط وتذكرت أنهم من المفروض أن يتناولوا الغداء أثناء العمل بمجرد أن يؤذن الظهر. حاولتُ أن أجد مبررا لكلامي أو أقلل من سوء الانطباع الذي سيترسب في عقولهم:

- معذرة يا شباب، فأنا غريب عن هنا وليس لي إلا هذه الشقة التي تبنونها في الدور الأخير

وأشرت إلى البيت وكأنهم ليسوا هم الذين يبنون الشقة فيه أصلا، لكنني حاولت أن ألفت انتباههم بأي شكل لأقلل حرجي من جهة ومن الجهة الأخرى أعطي نفسي فرصة للتفكير في مخرج يسوِّغ ذهابي إلى المدينة لأحضر لهم غداء.

- غريب وليس لديك شيء!

- هل أخذت هذه الشقة تخليصا لحقٍّ لك لدى أصحاب البيت؟

- ما الذي جاء بك إلى هنا وألقاك على هذا المر؟

كدت أتكلم معهم، لكنني ألجمت لساني واكتفيت بأن قلت لهم:

- قلبي القليل الأدب.

سأتصرف في الأمر بالتأكيد. لا يحق أصلا أن أتركهم هكذا بدون غداء.

أوشكتُ أن أصرفهم وأصرف النظر عن فكرة البناء في حد ذاتها وأعود إلى مدينتي من حيث أتيت. لكن بعض المشاعر التي لم أستطع أن أميِّزها ألحت عليّ في أن أبني لي شقة أعود إليها كل عيد أو مناسبة حزينة أم سعيدة حتى أحس بلمة الناس في هذا المكان، حتى وإن كانوا جميعا لا يتكلمون مع بعضهم البعض. لعل وعسى.

- الشدة يا شباب. سأذهب لجهينة غربا لأحضر لكم غداء. ماذا تأكلون؟

- وماذا بجهينة أصلا؟ أفيها غير الطعمية أو تلك الفراخ الممصوصة؟

- سأحاول أن أحضر لكم غداء معقولا.

قلتها وانصرفتُ، فلا ذنب لهؤلاء العمال. يجب أن يتناولوا غداءهم حتى يستطيعوا أن يواصلوا العمل، حتى ولو كان ممثلوهم أفسدوا كل شيء. صحيح أن أولئك الفلاحين

حولي أخذوا كل شيء! من المفترض أن يجد العمال أكلهم هنا على حسابي، لكن هؤلاء الفلاحين أخذوا أكثر من حقهم ولم تعد هناك جلسات أو مجلس أو كلام بيننا.

نظرتُ للوراء فأحسست أن الشقة التي أبنيها تُزيد طابورَ الغربة واحدا وسط خضرة أحسست ساعتها بأنها قاتمة لا تبعث في النفس بهجة. هززت رأسي كأنني أنفض صورة الخضرة القاتمة وأدرتُ محرِّكَ السيَّارة متقدما لأبحث لهم عن طعام في بلدةٍ لم أعد أذكر شوارعها أو أي شيء فيها.

9-4 أبريل 2010

"خير العمل"!!

- حي على خير العمل.

توكلنا على الله. أصلي الفجر أولا. لا يمكنني الخروج قبله، فالحاكم بأمره أصدر سجلا يمنع خروجنا إلى الطرقات من الغروب إلى الفجر. عندما أتيقن من تمييز الخيط الأبيض من الخيط الأسود، أخرج وأنادي على جاري. اعتدنا على الخروج سويا للصيد. أضع الشبكة في المشنَّة وأمسكهما وراء ظهري.

نصل إلى النهر. هل التقاء الاثنين يعتبر اجتماعا؟ ربما لا تقول اللغة ذلك، وربما تقول. لا أدري على وجه اليقين. فلنجتنب مواضع الشبهات. كان قد حرّم الاجتماع على النيل للفُرجةِ، فهل يكون جلوسنا نحن الاثنين اجتماعا؟ وحتى وإن قالت اللغة لا، من أدراني إن كان السمك يتفرج عليّ أو أنني أتفرَّج عليه؟ قضيَّةٌ لا أستطيع الحسم فيها، لكن ربما جاء من رجاله من يستطيع الحسم. فلنجتنب الشبهة.

لا نجلس سويا في موضع واحد. نحرص على التباعد. أراه في الغبش يلقي شبكته في النيل. أتخير موضعا واطئا حتى أقترب من بقعة عميقة. ألقي شبكتي. أترنَّم ببعض الموشَّحات الأندلسية، وربما أيضا يطرب لها السمك فيهيم سالكا درب المياه إلى شبكتي.

قبل أن تسطع أشعة الشمس، أسحب الشبكة مستبشرا. لا أتمالك نفسي عندما أحسُّ بثقل الشبكة، فيعلو ترنيمي. الحمد لله الذي رزقنا من غير حول ولا قوة. الشبكة مليئة بالأمشاط والقراميط. أتلفَّتُ حولي. أتيقن من عدم وجود أحد على البعد، إلا تلك الأشجار، لا أظن أن أحدا يجلس وراءها في الصباح، يُقْبِلُ عليها المزارعون وقت الغداء ليستظلُّوا بها ويرتاحوا قليلا ساعة تناول طعامهم. أرصّ الأمشاط بجانب بعضها البعض، والقراميط في الجانب الآخر من المشنة.

ينفجر صوت من وراء الأشجار. يشكم فمي بالشكيمة كأنني حمار لا بد من تلجيمه، ثم يهوي بالعصا على رأسي. ولكنني قبل أن يقيِّد يديّ أباغته وأقذف بنفسي في الماء. قد

أغرق، لكن على الأقل هناك احتمالا أن أنجو. أبصر جاري يعدو بذراعيه في الماء أمامي.

لا أضع أمام عيني سوى الشاطئ المقابل. يتَّسع عرض النيل هنا قليلا، لكن لا بأس، هل هناك أغلى من الحياة؟ لو توانيتُ قليلا لكان رجل الحاكم اقتادني إلى حيث لا أدري، وربما لن يكون لي وجود في التو، فعندما بلّغ أحد البصَّاصين رجاله عن ابن عمي الذي أكل الجرجير عندما اشتهته نفسه، قطعوا رأسه في الحال أمام أعين الناس. ما ذنبي في أن القراميط جاءت إلى شبكتي؟ ولكنه ربما سمع موشَّحاتي! لن يرى لي عذرا.

لهاث يوشك أن يثقل بي فيتلقفني باطن النيل لأعود إليه طعاما بدلا من السمك الذي اصطدته منه اليوم. عندما أصل إلى ذلك الشاطئ سأستريح ليهدأ لهاثي وتعبي على مهلهما، أما الآن فلا مفر من صراع الماء المعاند.

كان وحده وكان بإمكاني أنا وجاري أن نجتمع عليه ونقتله، تقوى أيدينا بمرارة الأيام فتلوي رقبته وتنتزع رأسه

لتلقيها في بطن النيل، لا أحد رأى، لا أحد علم، لكنهم ربما يعدمون كل الأسماك في النهر وربما النهرَ ذاته، الفرار أسلم طريقة، فساعتها لن يجد الأهل والجيران ما يأكلونه. لا بأس، الفرار الفرار.

هيا يا ذراعيّ لا تخذلاني، لا تخذلا عبدا توكَّل على الله فجاء إلى النهر، ها هو الشاطئ يقترب، وساعتها سأترككما تنعمان بالراحة، لا تخذلاني ولن أخذلكم، دقائق معدودة ونكون على الشاطئ الآخر، يا معين، يا من أنجيت يونس من بطن الحوت أنجني.

الحمد لله. أتمسك بأغصان شجرة الصفصاف التي تفترش الماء بجانب الشط. لا يعقل أن تخور قواي وأنا على بعد مترين أو ثلاثة من الشاطئ، يا الله، تماسك يا رجل، ألا ترى الأغصان مرحبة؟ ينكفئ وجهي على حبات الرمال، لا يهم، عندما يتوقف لهاثي وتنعم ذراعاي سأغتسل بماء النيل...

توقظني يد.

- حمدا لله على سلامتك.

- وسلامتك يا جاري العزيز.

يمتد النيل خلفنا، وتمتد الرمال أمامنا إلى أن تصطدم بالتل. هل اجتماعنا في الصحراء يستوجب القتل؟ لن نستطيع العودة يا صاحبي، ولن ننجو إذا تفرقنا في الصحراء، فلنظلَّ سويًّا، نتوغَّل في الصحراء، فربما نجد واحة أو حياة أخرى خلف تلك التلال. نتوغل ونتناسى سمكا كان لنا، نتناسى إلى حين، يا مُعين...

2007

شمس النهار[1]

أخرجُ من الكهف. أجلسُ على جبل الصقور أمامه. ألقي التحية بحذر على أشعة الشمس المستيقظة منذرة. أتلو عليها صلاة الشروق خوفًا. تأتي البنت بسلة التمر والخبز الجاف. أقضم بشراهة وأشرب جرعة من عصير التمر. أداعب الصقر الذي ينظر إليّ بطرف عينيه وكأنه يراقب ما أفعله. لا بد. ينتقل إلى جنبي الآخر في عناد، فأرسم ابتسامة على وجهي وأهبط المنحدَرَ الجبلي إلى طرف الغابة....

أهوي ببلطتي على تلك الشجرة التي لا تريد أن تنقطع. كل يوم أجيء إليها لأنحت في جذعها ثقبا. لا بد أن أنقلها إلى أعلى الجبل. سأحفر لجذعها حفرةً في الصخر وأنقل لها الطمي والماء، فتنشر الظل أمام الكهف لتبعد قدرا من أشعة رع المهلكة. تتطاير نتفة من خشبها إلى عيني. لا بأس. عندما أنقلها ستكون عيني قد برئت. هيلا هوب....

---

[1] لقب يُطلق على رع وقت الظهر.

تنفجر أصوات رجال المعبد في الغابة. لا بد أن نذهب للمعبد لنصلي لرع.... لا أستطيع أن أمسك سوطهم الذي انهال على جسدي لأردَّ الضربات. الكثرة تغلب الشجاعةَ. سيحبسونني في ظلام سجن المعبد السفلي.... أفارق الشجرة التي يتلهف الكهف إلى الأنس بها أمامه. تعلو أصوات رجال المعبد بالتراتيل. تفرقع السياط. ننتظم دون إعداد. تتباعد أصوات رجال المعبد خلفنا في عمق الغابة.... ألا يحيط رع بكل أشجار الغابة فوقنا؟! هل يلزم أن نعبده في معبد لا يدخله أصلا؟... تتباعد أصواتهم وكأن سياطهم تطاولت لتنضم لرع في أعالي الشجر وها هي الطيور تنوح من السياط.

يتلقفنا حُرَّاسُ المعبد بعيون متجهمة ربما كان فيها قدر من الخبث. يحددون الصلوات التي لا بد أن يتلوها كل منا. من عليه أن يتلو سبعا. من عليه أن يتلو عشرا. يلصقون أعداد الصلوات على جباهنا كي لا يتلو أحد صلاة غير

صلاته أو ينقص صلاة. علينا أن نبدأ صلاتنا بـ "مس رع[2]" حتى تدب الحرارة في أوصال شمس وليدة في الصباح لتنقضَّ على أبواب كهوفنا في الظهر فلا يبرحها أحد. أرفع يدي إلى صورة رع المرسومة بألوان البوص الذي نزرعه عند طرف الغابة.... كنا نظن أن الوحوش هي التي تكسّر أعواد الزرع ليلا بعدما يخضرّ. فلا نجد عندما نجمع المحصول في "بشنش[3] إلا نصفه أو أقل....

أبصر عَرَقِي في الألوان. تعود إلى رأسي الشجرة المعاندة التي تراوغ القطع، كأن أحجار الجرانيت تسري في لُبِّها لتصد ضربات بلطتي. يمتزج عرق الألوان بآهاتٍ أجاهدُ في كتمها. يُطِلُّ عَلَيَّ الصقرُ من صورة حورس منذرا. تصر الصلوات، التي لا تراعي جسدا، على فضح آهاتي، فتضطرب صلواتي. يختلط عليّ العد، فلا أعرف إن كنت صليت تسعا أم عشرا. يفيقني سوطٌ ينقضُّ على ظهري ويسوقني إلى السجن الملحق بالمعبد.

---

[2] شهر مسري من الشهور الفرعونية مشتق من "مس رع" التي تعني مولد رع أي الشمس

[3] شهر من الشهور الفرعونية يتم فيه جمع المحصول من الغيط.

تتعثر قدماي في أحجار مجلس الحراس أمام باب السجن. يُغلَق الباب في جبروت. يقتادني المراقب إلى الركن بجانب النول. أجد من سبقني أو سبقوني قد ندّوا الأليافَ بالماء وفتلوها. أجلس القرفصاء. أمسك الخيوط. يحزُّ ثوبُ القش الذي ألبسه في جسمي عندما تلمس يدي خيوط الكتان. لا بد أن أنسج ثوب الحاكم. أبدأ بالخيوط الحمراء[4]. أتلو عليها التمائم التي يُلقِّنُني المراقبُ إيَّاها. تنكبُّ الأيادي على الخيوط. فقط صوت الأنفاس يقطع السكون. أنتقي الخيوط الزرقاء بحذر.... فإذا لم أراعِ ضفرَها بالخيوط الحمراء جيدا سيُدَبّ المِخْيَط في عيني ولن أرى بعدها شيئا وستنهال عليّ السياط لأنني لن أرى....

عندما أتيقن من حسن ضفرهما، أمسك الخيوط السوداء مبتهلا. أتلو عليها تراتيل الخير. تتضارب الألوان في عيني وتتمازج، كأن مصباح الزيت فوق رأسي بالحائط من أقرباء تلك الشجرة المعاندة. أنظر إلى النافذة الكبيرة المغلقة....

[4] يدل اللون الأحمر في الثقافة الفرعونية على تمائم الشر والأخضر على تمام الصحة والعافية والأزرق على منع الحسد وطرد الأرواح الشريرة والأسود على جلب الحظ والخير والأبيض على الطهارة والخلاص.

كلما أجيء إلى هنا أجدها مغلقة. لا أعرف السبب في إغلاقها على الدوام في وجه أشعة شمس قد تساعد هذا المصباح العجوز.... أفرك عيني بكفي. أهش ما ترسب أمامهما من غبش. أكتم ابتسامة ساخرة عندما تمتد يدي إلى الخيوط البيضاء.... أود أن أدعكها بأحجار أرضية السجن أو أنثر فيها شظايا تلك الشجرة التي طَرَفَتْ عيني. يخطر لي عندما يخرج المراقب أن أطفئ المصباح وأتبول على الخيوط البيضاء. أخبط رأسي بيدي. لا يخفى عليه شيء. يعاقب الواحد منا على خطايا لم يقربها، فما بالك بخطيئة كبرى!...

يصل لمسامعي كلامُ الحرَّاس بالخارج عن سنين عجاف ستجيء. أستغلُّ غيابَ المراقب. أنسج الخيوط الخضراء بلهوجة متعمدا. على الأقل لن يلاحظ شيئا. سأسلمه الثوب كاملا. أنظر للمصباح مبتسما وأشكر له عجزه. فلن يتبين المراقب شيئا في هذا الضوء الخافت. أُخْرِجُ من تحت ثوبي كفَّ الطالع الذي أحضرتُه معي وتَلَوْتُ عليه تعاويذي. أخبِّئ كفَّهم مكانه. أسلِّمُ المراقبَ الثوبَ. ينادي

حارسا ليصطحبني إلى المعبد حتى أعيدَ صلواتي. يُحَذِّرُني الحارسُ من تكرار الخطأ. فهذه المرة اكتفوا بنسج الثوب وإذا تكرر خطئي سيزجُّون بي في السجن السُفلي....

لن أقضي اليوم كله في الصلوات وأترك تلك الشجرة تهزمني.

عندما أفرغ من آخر صلاة يقتادني حارسٌ آخرُ إلى المَطْهَر. يوقفني تحت قرص الشمس حتي تذيب ما ترسب في رأسي. ينقر صقرُ رع في جمجمتي وكأنه يساعد القُرْصَ في الإذابة إلى آخر قطرة. أُخْرِجُ الشجرةَ بين النقرات من رأسي وأخبئها في سرداب عيني. يطلقون قدمي عندما تكف الرأس عن التقطير.

لا أحس بحركة قدميَّ. ولكنني بعد أن أبتعد عن أعينهم، أفرُّ إلى تلك الشجرة.... أين تلك الديدان الكريهة التي تأكل عيدان القمح والشعير؟ لِمَ لا تأتي لتأكل ما تبقَّى من مَقْطَعِ هذه الشجرة؟ تضحك العصافير والفئران ساخرة في أذني:

- نحن لا نأكل إلا المحاصيل في الأجران، أنت الذي عليك أن تقطع شجرتك....

أرتمي تحت جذعها لأستريح ساعة عل غليان جمجمتي يخف قليلا...

تتناوش في رأسي الديدان والطيور والفئران. يهدؤون ويقفون للفُرجة عندما تهمُّ بقراتٌ عجافٌ بأكلِ بقراتٍ سمانٍ. تتملص السمان، يحاولن أن يهربن. تصطادهن العجاف في سجن المعبد. لا يظهر المراقب في أي ركن. عندما تمتلئ بطون العجاف يتطايرن في فضاء السجن، يقفزن من النافذة التي تنكسر. يفتح الهواء مَنْفَذًا لأشعَّة الشمس بين الأغصان. تضرب الأشعةُ عيني. أصحو فَزِعًا على أصوات بعيدة تدبُّ من كل فَجٍّ عميقٍ....

تتعالى أصواتُ رجال المعبد:

- حيَّ على العمل

يباغتني النداءُ.... دائما يقولون لنا إن الغابة في الليل لمَبِيتِ رع. لا يسمحون لنا بالمبيت فيها. علينا دائما أن نسارعَ إلى كهوفنا قبل أن يبتلع الجبل آخر شعاع....

علينا الآن أن نظل طوال الليل نحرس غيطان القمح والشعير. أستبشر. سأتعقب تلك الديدان بالليل والنهار. لن أتركها تأكل العيدان كي أجد لي نصيبًا عندما أسلِّمُ المحصولَ للكيّالين.

عندما يذهب رجال المعبد للنوم ويتركوننا حارسين، أَنْقَضُّ على جذع الشجرة بالبلطة. يبدو أنها لا تقع إلا ليلا. أتغنى طربا عندما أسمع دويَّ سقوطها. أتسلل في خفاء الليل إلى جيراني بالكهف في غيطانهم. ينقلون معي الشجرة إلى عتبة الكهف.... "إن كنتُ أنا سأظل بالغابة ليل نهار، فلابد أن تجد زوجتي وأطفالي شجرة ولو يابسة تظلهم من نار رع التي لا بد ستزداد كي تستعجل حصاد القمح".... نشرب على عجل أقداح شراب "الخوت"[5]. أود لو أن ماء النهر

---

[5] التوت بالفرعونية.

تحول "خوتا" لأرش به أعواد القمح لتصد تلك الديدان التي لا تخشى أحدا. ثم نعود، كلٌّ إلى غيطه.

يباغتني التعب بالرغم من انتصاري وفرحي. أريح رأسي على حافة الغيط.... يتوهج نور أخضر في الغيط. مصباح أزرق على حافَّتِه يبخُّ سوادا على بقرة عجفاء تأكل أعواد القمح. خوت أحمر يتساقط على السنابل. بقرة سمينة تهرول عند السفح مبتعدة. المراقِب يفكُّ الثوبَ ليحشر فيه ألوانا لا أتبيَّنُها. أخطئُ في صلواتي. الصقر لا ينقر في رأسي، بل يهز بمنقاره سنابل القمح. طيور تأكل من رأسي ورأس جيراني. تمرح بقرات عجاف وسط غيطان القمح. يهبط قرص الشمس إلى حواف السنابل ويقترب من عيني. تدوس بقرة على قدمي. يقفز رمشاي متراجعين على صوت ارتطام.... رجال الحاكم يلقون الشجرة من على الجبل. ينفونني خارج الغابة لأحرس الغيطان عند حواف الأحراش. ألقي نظرة أخيرة على الكهف. أفرُّ باحثا عَمَّنْ يفسِّرُ لي حُلْمِي.

(2007)

انظر خلفك في صخب

- انظر واسمع كما تشاء، لكن لا تفتح أبدا فمك. هذا الشرط الوحيد في العقد وما عداه ابنتي زوجة حلال لك.

هززتُ رأسي موافقا، فها هي حبيبة قلبي ومنتهى مناي زوجة لي. لم يشترط أبوها شيئا سوى ذلك. عندما خرجتُ كان العصر يؤذن، لكن الإمام ما إن فرغ من أذانه وبدأ ينزل من أعلى المئذنة حتى زلَّتْ قدماه، فسقط. سمعتُ همهمات علت هنا وهناك:

- قصة كل يوم.

وعندما وصلتُ إلى الفناء أمام الموضأ وجدتُ المؤذِّنَ مكسورَ القدمين مجروحَ الركبتين.

سمعت صوت امرأة تولول وسمعت تعليقات ساخرة على جريها في فزع:

- بنت الـ... تعمل من نفسها شيخة، تجري وتصرخ وكأننا لم ندفنه سويا.

دخلتْ فناء المسجد وعلى وجهها فزع حقيقي. احتضنتْ قدميَّ الشيخ وأخذت تقبّلهما. ثم انتزعتْ قطعةً من جلبابها وربطتْ بها دمه. نظرتُ إليها نظرة متفهِّمة وكأن روحها تسللت إليّ فامتزجت برأسي وصارت جزءا منها. "لكنني عندما نظرت في وجهها الذي يبتسم في فتور/ أدركت أن روحها لم تكن في ذلك المكان الغريب"[6]. ومع ذلك تذكرت شَرْطِي ولم أربّتُ على كتفها أو أخرجُ لأصرخ في الجالسين بباب المسجد يُلقون بالتعليقات والوشايات على المرأة دون حراك. التفتتْ المرأة إلى الشيخ وقالت:

- سأبني للمسجد مئذنة جديدة بسلالم واسعة.

لكن الشيخ قال لها على الفور:

- مالُكِ لا يصلح لبناء المئذنة.

[6] من قصيدة "راقصة هارلم" للشاعر الأمريكي الأفريقي كلود مكاي. وجه أمريكا الأسود، وجه أمريكا الجميل: مختارات من الشعر الأفروأمريكي. ترجمة أحمد شافعي. مراجعة جمال الجزيري. المشروع القومي للترجمة. 2005.

وسرعان ما سرت نظرةُ ندمٍ أو ألمٍ في عينيه، فاعتذر في تردد وقال لها:

- الله هو المُسَهِّل والهادي.

هممتُ أن أصرخ في الناس ليسارعوا إلى إنقاذه، لكن الشرط قيّد لساني. فعرجتُ في صمت إلى الداخل وصليتُ العصر في سكون.

عندما وقفتُ عند باب المسجد لأحدِّدَ وجهتي، سمعت أصواتا تتشاجر. التفتُّ لأجد رجلا يمسك "قَصَبَةً" ورجلين بجانبه يتشاجران.

- كيف يا عم الحاج تقول إن الحد الفارق بين غيطي وبين غيطه هنا؟ ألا ترى أنك أكلت من غيطي ذراعين؟!!

وكأن أُذُنَيّ الحاج فوهة درّاسة جهنمية أكلت كلامه دون أن يخرج منها شيء. أخذ صاحب الغيط المأكول يضرب كفّيه ببعضهما ويتحسبن دون أن ينهض أحدٌ ليشهد على ظلم الفرق. كدتُ أصرخ:

- كيف؟ ولماذا؟!!

لكنني ارتددتُ إلى شرطي، فكبحتُ جماحَ لساني وصمتُّ.

عدتُ إلى الطريق بجانب مجرى الماء. فركتُ عينيّ غير مصدِّقٍ لما رأيتُ. التفتُّ إلى الوجوه الجالسة بجوار المسجد ثم عاودتُ النظر إلى الغيط لأحاول أن أشدَّ عيونهم إلى "أشجار الأفيون" المزروعة بجانب المسجد. لكن عيونهم كانت تنساب فوق أشجار الأفيون أو تحتها وكأنها جزء لا يتجزأ من هذا المكان في موضعها السليم. ضربتُ كفا بكف أنا الآخر ومضيتُ إلى النهر علّ ماءه يردّني إلى فطرتي. لكن رأسي أخذت ترمح بي في الحماد وتهرول يمينا ويسارا، أماما وخلفا، وكأنها كانت تحاول أن تستوعب شيئا.

تذكرت نظرتها وابتسامتها لسماع الشرط، فتسلل إلى قلبي شكٌّ: ما معنى ابتسامتها أصلا؟ أين كانت رأسي عندما قبلتُ بهذا الشرط العجيب؟ إن كانت قبلتْ بهذا الشرط، فلماذا التعلق بها أصلا؟ لست أدري إن كنت قد أخطأتُ الظن فيها

من الأساس أو أنها كانت لا تستحق كل هذا الصمت. لم توصلني أفكاري إلى حلٍّ وظلت المتناقضات تلعب في رأسي كأنها "فُرِّيرَة" وهذه المتناقضات لا تملّ الدوران والنخر في رأسي.

واصلت طريقي إلى حدود النهر. ربما أصابني تبلُّدٌ ساعتها. لم أستطع أن أحدد ما كنتُ أحسُّ به عندما رأيتُ رجالا ينهمكون في العمل في أحد الغيطان فيقطعون النباتات الصغيرة والمتوسطة ويتركون النباتات التي شاخت في جذورها وصارت هشيما لا تذروه أي ريح. ظلت رأسي على تشتُّتِها تتلاطم فيها الصورُ دون أن أتوصَّلَ إلى وجهة نظر ترضيني أو إلى طريقة مناسبة للخروج.

عندما وصلتُ إلى النهر، وجدتُ رجلا جالسا على الضفة يملأ عُلَبَ سمنٍ نباتيٍّ فارغةً بالماء: علب يملأها إلى آخرها؛ أخرى يملأها إلى منتصفها؛ ثالثة يملأ ربعها؛ رابعة يضع فيها نقاطا لا تكفي حتى لبللها؛ وعلب يتركها فارغة تماما لحرارة الشمس والجفاف. انتابتني حرقة لأن أنبِّه

الرجل: لمَ لا يملأها جميعا بالماء إلى آخرها ويحملها على عربته الكارو المنتظرة بجواره وحماره الذي يأكل في الحشائش بدون نظام؟ لكنني تذكرتُ وأحسستُ في الذكرى قيدا، فاستدركتُ:

- ما ذنبها إذا أخللتُ أنا بالشرط؟

فتركتُ الرجل وانصرفتُ لينقلب عليّ نصف السؤال الثاني:

- وما ذنبي أنا إذا واصلتُ التزامي بهذا الشرط؟

كأن صوتا ناداني أو همس في قلبي:

- ذنبها أنها ابتسمت لسماع الشرط، تركتك أخرسَ تموت كل لحظة في صمتكَ وعجزٍ بإمكانك التخلص منه...

قطع هذا الصوتَ صوتُ صراخٍ، فجريتُ بفضول إلى مصدر الصوت. وجدتُ رجلا يضرب زوجته وأما تضرب أطفالها. اندفعتُ بتلقائية لأفض العراك. لكن شرطا همجيا

أوقف قدميّ في اللحظة الأخيرة وشكم لساني. بدأتُ أحس بوطأته على رأسي وبهواني على نفسي. ومع ذلك التزمتُ. أحسستُ بأن رجولتي ستنقصُ إذا نقضتُ التزامي. وفي نفس الوقت نازعني هاجس بأن رجولتي تنتقص إذا ظللتُ صامتا أمام ما أرى. جالت صورتها الغاوية أمام عيني وكأنها كانت تعاتبني أو تؤرقني أو تجرجرني في بِرَكِ الماء الراكد بجانب الطريق:

- ليس لي ذنب في كل ما ترى

ومرة أخرى كانت تظهر لي بصورة مختلفة:

- ما دمت قبلت الزواج بي بدون ثمن فلتستحمل كل ما تراه

أو:

- أنا في انتظارك، اربط لسانك بمربط بقرة هائجة وتعالَ إليّ.

ثم سمعتُ صوتا يحبو على لساني دون أن يقوى على الحركة الكاملة: "سيمسي وجودي هيكلا عظميا، قوقعة / إذا لم يطعمني الدم المترّع بالحياة"[7].

تزايد غليانُ رأسي حين بدأتْ حواسي تتصارع مع بعضها البعض. كنتُ أظن أن السمع والنظر كافيان للانسجام مع العالم، خاصة وأنهم كانوا يقولون لنا إن الإنسان له أذنان وعينان ولسان واحد. كانوا يقولون إن السكوت من ذهب. لكن سؤالا أخرج لي لسانه:

- هل هو ذهب صيني مزيف من ذلك الذي ينتشر في الأسواق الآن ولا قيمة له؟ حتى لو كان ذهبا، ربما كانت الفضة ذات قيمة أكبر. ها هي عيني ترى، وإما للسان أن يعلِّقَ أو يُشْتَرى. الأذن تسمع ولا بد للسان أن يردد صدى ما سمعه، أن يعلّق عليه، أن يشارك فيما يسمعه، أن يعجنه ويشكل منه طعاما مناسبا له.

[7] من قصيدة "المدينة البيضاء" لكلود مكاي، المرجع السابق: وجه أمريكا الأسود: وجه أمريكا الجميل.

ساعتها أدركتُ أن لساني مقيد بزواج كان شرطه نقمة عليّ. لعنتُ الزواج ورأسي التي سكرت عندما سمعت الشرط المراوغ دون أن تلتفتَ إلى ما سيجرّه عليّ. أخذتْ رأسي تدور في كل الاتجاهات. وأبصرتُ نفسي ضئيلا إلى حد الهوان وأن كل النباتات الصغيرة حولي التي كان شوكها يجرح من يقطعها أطول مني بكثير وكأن حركتها وهي تنشكّ في أيدي القاطعين لسانٌ مازال يحتفظ بمرونته.

عندما بدأتْ الرؤية تتضح أمام عيني، أحسستُ بيدٍ تتحسسني من الخلف وتثقب بسرعة هائلة ثقبا في رأسي ثم تمتد إلى أسفل ظهري، تراءى لي الخطر وحشا يوشك أن يبتلعني للأبد. تداخلت أمام عيني الصور سريعا: زوجةٌ في بيت بجانب رجل فاقد كرامته؛ شرطٌ لم أدرِ ساعتها مدى فداحته يخرج لي لسانه ثم يبصق في وجهي مستهزئا؛ لسانٌ لي ينظر مقهورا لكنني أخذله؛ صلاةٌ أحاول أن أصليها بكل خشوع فترتد إليّ ساخرةً صارخةً لافتةً نظري إلى القدمين المكسورتين أمام المسجد.

صمتَ شريطُ الصور فجأةً كأنه يطالبني بالتعليق على ما أرى. ولأول مرة كبحت جماح شَرْطِي ولويت عنقه لأرمي به في البرك الراكدة بجانب الطريق واستجبت بعفوية وفورية، فأخرجت مسدسي الذي أوشك على الصدأ من جيبي واستدرت للوراء بسرعة، قاذفا طلقة على يد أوشكت أن تتوغل فيّ. لم أحس ساعتها بالدم الذي كان ينزف مني، لكنني ارتحتُ، فأدرتُ ظهري للبلدة النائمة على ضفة نهر كسول وسارعتُ الخطى وصوتٌ لا يفارق أذني: "انس دفء ذراعيها/ وصدرها الذي دلّلك./ وانس أي وجه أحببته/ أغمض عينيك./ أغمض عينيك وسر في شجاعة"[8].

طربتُ للصوت وأحسستُ بقوة حقيقية تسري في لساني وهو يردد هذه الكلمات في انتشاء وراء لساني الذي ما عاد كسولا.

10-13 مايو 2009

---

[8] من قصيدة "أغمض عينيك" لأرنا بونتام، المرجع السابق.

سيرة أنف

كنتُ واقفا في المطار في انتظار صديق. فجأة انفجر صوتُ مُكَبِّرِ الصوت:

- مكسيكي في المطار.

اختلطت كل الوجوه، كلٌّ يحاولُ أن يستأصل أنفه، أن يغلق فمه، دون جدوى. احتجزونا جميعا في الحَجْر الصحي في انتظار الشحنة التي يرسلها المكتب الإقليمي لمنظمة الصحة. حقنونا جميعا بمصل ما. وسرعان ما علت ابتسامةٌ مُتَوَجِّسَةٌ على الوجوه.

لم أجد صديقي. لكنني رأيت أنفي تتحرك ورأيتني خارجا من المطار أفتِّشُ عن شيء لا أعرف ما هو. الْتَقَطَتْ أنفي موجةً شاردةً في الأثير من ليلة أمس من تقرير القناة المحلية على النايل سات عن أماكن زرائب الخنازير. جرّتْني لأقفزَ في أتوبيس لم أجد الوقت حتى لأقرأ وِجْهَتَهُ.

توقَّفَ في محطة نائية، في ضاحية إحدى المدن. ازداد استبدادُ أنفي وكأنها صارت عقلي الذي يتحكَّمُ في كلِّ حركةٍ

من حركاتي. أَخَذَتْ تُحَرِّكُنِي حسبما تهوى وأنا أسير وراءها منقادا وكأنها أذابت إرادتي في الهواء الذي ينجرف في هوانٍ إلى فتحتيها. وبالرغم من أنني لم أرَ خنزيرا واحدا، أمرتني أنفي بالتوقف عند موضع لم أتبيَّنْ فيه سوى كمِّيَّاتٍ هائلةٍ من قمامة كنت أظنُّها تُحْرَقُ أولا بأول. توقَّفْتُ مع ذوبان آخر قطرة من إرادتي. لم أجد أي وجه كان. فقط الفراغ والنأي وعواء الرياح. روائح عفنة لم أظن قط أنها موجودة بهذه الكثافة. آثار دماء. مصبّات صرف صحي. وجسد منهك لي. أمرتني أنفي بالانكماش في أحد الأركان فانكمشتُ، كأنها عسكري متجهم على باب "حَجْزٍ" يأمرني بالجلوس والصمت، فلا أجد مكانا إلا بجانب دلوٍ مليءٍ ببولٍ معتّقٍ فأسدّ أنفي وأجلس في انكسارٍ. نِمْتُ....

وجدتُ أشباحَ خنازيرَ تطاردني وتهجم عليّ. تشمَّمَتْ كلَّ جزءٍ من جسدي ولمسَتْه. في الصباح وجدتُني أَلِدُ خنزيرا وأنشرحُ. أخذتُ ألحسُ الوليدَ في نشوة ورأيتُني أفتحُ منخاريه وأتشمَّمُ وأحاول أن أشفطَ روحَه لتتسلَّلَ إليّ. وما أن تستوعبَ

أنفي روحَه حتى أجده يموت. لكن جسمه سرعان ما يتكاثر وتخرج منه خنازير أخرى. تتكاثر الخنازير حولي وأنا منهمك في عملي: أَلْحَسُ وأشُمُّ إلى أن امتد جسمي وكاد يملأ الزريبة.

صور اختلطت في رأسي. أحسست بأنها تريد أن تقول لي شيئا. دبّت همهمات في رأسي. حاولت أن أتذكَّرَ شيئا. لكنني لم أتبيَّنْ إلا صوتَ الهواء العاوي وهو يعدو إلى أنفي. لم أحسّ إلا بجسدي وهو يتوسَّع في كل الاتجاهات. كنت أَفْزَعُ من منظر الامتداد، وفي نفس الوقت تبتسم أنفي لتكاثر الخنازير.

نبَّهَني فزعي إلي شيء ضائع. لكنني لم أجد في ذاكرتي شيئا يُرْجِعُنِي إلى ما كنتُ عليه. حاولتُ جاهدا أن أخمِّنَ صورتي السابقة مع تزايد حدَّةِ الأصوات الخافتة في رأسي وتضاربِها. لم تصل ذاكرتي إلا إلى صوتِ مكبّرِ صوتٍ في مكان مليء بكائنات تجري في هلع إلى مكان ما لتُغرز إبرٌ في أجسادها. شيء حديدي يسير في مكان آخر

ومليء بكائنات أخرى تُشْبِهُ الكائنات الأولى. ماسورة بها فتحتان تبتلعُ كل الرَّوائحِ وتَجُرُّ جسدي وراءها. أَخَذَتِ الصورُ تتلاعب وتتداخل في رأسي، وصوت الهمهمات لا يصمت لحظة، ولكن لا يبرز من بينها صوت واضح. أحسستُ بأنها تعبث بي وتسخر من جسدي الممتدِّ وخضوعي لأنفٍ لا أعرف إلى أين ستوصلني. لم أتذكَّرْ شيئا عن أي عالم غير عالمي في هذه الزريبة وكأنها كل ما عَهِدْتُه في حياتي.

في أحد الأيام ألهب القرص الأصفر الذي يعلو في الهواء فوقي نَفَسًا ينجذبُ إلى أنفي. ساعتها سمعْتُ صوتا يقول لي:

- ذكرى موت أبيك اليوم.

وكأن هذا الصوتَ سيِّدُ كلِّ هذي الهمهمات، بَدَأَتِ الأصواتُ تصفو، وبدأتُ أرى رائحةَ رَجُلٍ مُحمّلةً بتراب الأرض ومائها. لم يستطع الخنزير الذي كان يحملق فيّ ويتلَمَّظُ أن يشفطَ هذي الرائحة من أنفي وكأنها أقوى من كل

الروائح المعتّقة والمتغطرسة التي تستحوذ على كل موضع حولي.

عندما تَمَكَّنَتِ الرائحة من داخلي، بدأتُ أشعرُ بأشياء غريبة، بشيء جديد فَرِحْتُ بأنه نغَّصَ على أنفي انتشاءها بالروائح المُلْتَفَّةِ حولي كطابورِ أَمْنٍ مَرْكَزِيٍ يَلْتَفُّ حول طفلٍ ويظنُّ أنه رأس الأفعى. لكنني لم أستطع حراكا، إذ أن جسدي ملأ كل الزريبة ووجدتُني أتهاوى وأتحلَّلُ ذاتيا. وأبصرتُ الخنازيرَ حولي تأكل مي جسدي. لم أحسّ بألمٍ، كأن جسدي انفصل عني تماما، وأن آخر إحساس كان به عندما تهاوى أمامي دون أن أستطع أن أفعل له شيئا.

خَطَرَ لي أن ذلك الصوتَ الذي ذكَّرني بذكرى موت أبي كان نبوءةً قالت لي إن جسدي سيفنى دون أن أدرك ذلك ساعتها. لكنني سَعِدْتُ بأنني استعدتُ القدرة على الرَّبْطِ وتمكَّنْتُ من أن أربط بين الحدثين. حتى الكلمات صارت ذات معنى في رأسي، فلقد بدأتْ تَسْتَعِيدُ مدلولاتٍ كنتُ قد فقدتُها وكأنها هي ذاكرتها التي سَطَتْ عليها أنفي.

ازداد فرحي بكلماتي وذاكرتي عندما تلاشت الهمهماتُ تماما وأفسحتْ رأسي لكلمات وأفكار وصور أحسُّ بها. فرأيتُ صورا كثيرة تتضارب في رأسي وكأنها قادمة من رأس جديدة غير التي زرعتْها أنفي بروائحها. وجدتُ:

- وجها حميما أعانقه في المطار؛ أُمًّا تنتظرُ في قلقٍ وتلهُّفٍ ابنا يعود لها؛ إخوةً يجلسون مستمعين لقرآنٍ يُحْيُونَ به ذكرى أبيهم وكرسيا فارغا وسطهم يلفتُ الانتباهَ إلى نفسه؛ امرأةً تضُمُّ أبناءها إلى صدرها وتبكي ناظرةً إلى المدى علَّه يُظْهِر لها وجها قادما من بعيد؛ كتابا يَتَلَهَّفُ على يدٍ تُمْسِكُ به وتقلّب أوراقه؛ رجلا يصارع عضوا من جسده يستحوذُ عليه، لكن الرجل يتمكَّنُ من أن يلويَ تَقَوُّسَ هذا العضو ويقهره منتصرا لكل انتكاساته؛ رجلا يستردُّ حركةَ قدميه ويطوِّعُها لإرادته؛ نهرا يفيض من جديد ليزرع الأرض برائحة وجوهٍ بسيطةٍ وحميمةٍ؛ طفلا يجري في فناء مَدْرَسَةٍ مستبشرا باكتشافاته

الصغيرة؛ جسدا ينفخ نارا من فمه ليحرق ديدانا هائلة تجاهد لتلتهمه.

لكنني لم أستطعْ فِعْلَ أي شيء أو أن أمُدَّ يدا لأحدٍ. فقط الخنازير كانت تتكاثر حولي. فَرِحْتُ بأنها خلَّصَتْني من امتداد جسدي في كل الاتجاهات. ووجدتُ أنفي تنكمشُ على نفسها في مَذَلَّةٍ وكأنها تطلبُ مني الصفحَ. فتركتُها لتستردَّ استقامتَها. وعندما أبصرتُ بشاعةَ المنظرِ حولي كأنني أراه لأول مرة، خَرَجَتِ الصورُ من رأسي وأخذتْ تجذبني بعيدا بقوَّةٍ كنت أظنها لدى الجان والآلاتِ الجبَّارة فقط. أخذنا نعدو إلى أن بانَتْ وجوهُ البَشَرِ على الطريق، فانتشينا و"سبقنا ظلنا".

4-5 مايو 2009

أرضُ الحروفِ

أمسكَ بالقلم وغرسَ الأحرفَ في باطنِ السطورِ أسئلةً، فأبت أن تَحْبَلَ بالفضيحةِ وتمسَّكَتْ بالبياضِ كأنه الطُهْرُ، دون أنْ تُغَازِلَ حرفا أو تُلامِسَ الاخْضِرَارَ. بدت له الصفحاتُ سيدةَ بياضِها وعاشقةَ الهواءِ، لكِنَّ الصورة التي خطرت أمامه خنقت قلمَه، فلا هواؤها أنعشُه ولا حروفُها المدفونةُ خرجتْ تناوشُ الحياةَ.

أمسك بالقلمِ من جديد ليُزَحْزِحَ الصَّنَمَ عن عيونِ الخضرةِ وألسنةِ المدى. وضع علامةَ استفهامٍ انفجرتْ فيه وأوقدتْ أسئلتَه على مَجْمَرَةِ الوقتِ، فلا سؤال بَرِدَتْ نارُه، ولا الوقتُ غادرَ مَوْضِعَ النَّبْعِ.

تشبَّثَ بالقلمِ في يده ليسائلَ السكونَ المعجونَ بماءِ الصَّمْتِ. وضع علامةَ تعجُّبٍ عَجِبَتْ لموقِفِه وسَخِرَتْ من أحلامِه الخضراءِ وحركتِه التي يُلوِّحُ بها على أسنَّةِ الوعدِ. بدا كما لو كان يُشْهِرُ فسفورَه الأبيضَ والأزرقَ والطَّيْفَ كله في وجهِ أجسادٍ أَنْتَنَهَا جمودُها وأعلاها فوق مجرى النهرِ

لتصيرَ تيفودا يُشْهِرُ أعْرَاضَه في وجهِ الصباحِ والمساءِ والمواعيدِ الحائرةِ، كما طائرةٌ ضاعتْ خريطتُها فظلَّتْ محلِّقَةً دون أن تعرفَ محطَّةً أو يلوِّحَ لها مطارُها باللجوءِ لحضنِه.

عندما ضجَّت رأسُه وتلاطمت أمواجُها، أَسْكَنَ حركتَه الغاضبةَ علّ جَلْطَةً وشيكةً تُجِيدُ طريقَها ولا يَصْمُتُ قلبُه عن نَبْضِ الكلامِ. ثمَّ ثَبَّتَ نصلَ القلمِ في سُرَّةِ الصَّفحةِ ليضعَ نقطةً ويتركَ القلمَ. لكنَّ حروفا خاصمَتْه وحروفا ندّدَتْ بجبنِه أو انكسارِه وخيانتِه في وَضَحِ المعركةِ، فعاد إلى أرضه ليعيدَ حساباتِه ويفكِّرَ في استراتيجيةٍ جديدةٍ يعانقُ بها الماءَ.

11 نوفمبر 2009

تعامُدُ الصورِ

تزكم أنفه زناخةُ جردل الماء في أقصى الغرفة. يزداد تشبُّثُه بأسياخ الباب المتعامدة علّ نسمة هواء تجيء إلى تلك الغرفة المظلمة. صرخات تُصِمُّ أذنيه، يحاول كل صوت أن يقول كلمته قبل أن يتلاشى الصدى، قبل أن يتكاثف الظلام تدريجيا ليمنع الرؤية للأبد. كأنه كان يسمع صوته، أو أن صوته كان يتلاحم مع آلاف الأصوات المحشورة في الغرفة الضيقة. هل سمع حشرجة قبر؟ أم أن صوته تمَّ تهجيره في هذه الغارات الكثيفة؟ لم يستطع أن يحسم شيئا، لكنه أدرك الحضورَ المتزامن لكل شيء، رأى كل الحالات تتجسد أمام عينيه، أو أنه لم يجد نفسه وسطها، وها هو يحاول أن يتوصل لشيء يعينه على الوعي بما يكتنفه ويحصره في هذه الغرفة الضيقة، أو في غرفة القطاع الأضيق.

عاودته صورة الحذاء المرشوق. ظن ساعتها أن من تلقاه سيفعل شيئا ليحفظ به ماء وجهه أمامه. لكنه سرعان ما تدارك موقفه، ورأى أن كل ما يحدث الآن ربما كان انتقاما

أو تحريضا أو لعبة كوميدية ساخرة شديدة السادية. هشّ كل الأفكار المتواردة على رأسه ليفسح المكان لصفاء قد يساعده على الاستيعاب. لكنه أدرك الظلام وأدرك حربه الخاسرة في الغرفة الضيقة الأخرى.

كانت الدنيا ظلاما أمامه، وانكسرت عصاه إذ أنها لم تستطع أن تلتحم بصخور كانت قد تكتَّلتْ في طريقه الآن ولم يدر سببا، فخرج إلى الشرفة علّ نسمة هواء تفتح له مساما أو ترفرف على رئتيه لتبعد لهاثا لا رجاء منه.

رآها على ضوء العمود الكهربائي تمسك طبقا كبيرا في حذر، ترشُّ الماء أمام عتبة الدار وكأنها تداري سوءة بدت لها أو تسدُّ مسام التربة في وجه بذور تحاول أن تتفتَّق. هل يقفز من الشرفة لينقضَّ عليها ويموت أم أنه يسرع إلى السقيفة ليخرج من باب الدار فتلتصق بخلاياه المعوِّقاتُ؟

لم يستطع أن يقرر، لكنه آثر عدم الانتحار وهبط السلم مسرعا. ملأ جردل الماء من الصنبور على عَجَلٍ. فتح الباب بوَجَلٍ وأخذ يذيب ما رشّته، مفتِّتا إياه في وسط الأتربة التي

يسوقها الماء أمامه. وأخذ يحضر الجردل تلو الجردل ليغسل به آثار ما رُشّ على عتبة الدار. هل كانت واقفة على البعد تنظر إليه ساخرة مقهقهة، أم أنها لم تكن هناك، أم أنها انزوت بسرعة إلى حيث أتت في البيت المجاور، أم أنه أمسك بها وظل يطوّح بجسدها ليضربه كل حين وحين بالجدار الصلب فتنفر الدماء منه هنا وهناك لتلتحم بمجرى ما سكبه من ماء على العتبة؟

لكنه عندما أفاق وجد نفسه ضابطا، وأخذ يتحسس علامات على كتفه لم يحس بألفة معها. علامات كانت تطارده كالخطايا. يقاوم حركة لسانه كي لا تنفلت شتائم لا يقصدها. يقاوم حركة يده كي لا تضرب أحدا لم يُسئ إليه. تبلغ المقاومة ذروتها، وسرعان ما تتقهقر على الخط النازل ليجد لسانه جملا عاقًّا انفلت زمامه، ليجد يديه كرباجا سودانيا يضرب في الظهور رغم أن مَن يمسكه فوق الجمل يحس بألفة شديدة مع تلك الوجوه ويألف لعب الأطفال على مَبْعَدَةٍ مما يذكّره بأطفاله هناك خارج الحدود.

يهمّ أن ينتزع الكرباج ممَّن يحتمي بالركوب على ظهر الجمل ويلسع ظهورا ما كان لها سوى أن تنتصب في استقامة وكبرياء، لكن عصا السلام توقفه. يرى مئات الجثث متناثرة حوله وكأن غزّة كلها بحر متلاطم الدماء. تضيع صرخاته سدى وسط أصوات تندد وكفى. هل عاد ضابطا كما في منام سابق؟ أم أنها رؤيا صادقة وما كان يوما نائما؟ تنطلق رصاصة من على الجانب الآخر من المعبر لتسكن رقبته وتخرسه إلى الأبد. تتراءى صور ولديه وزوجته وطفلته الرضيعة حيةً أمام عينيه، وكأنه ما كان هنا موجودا ليحافظ على حدود له، كأنه ما كان موجودا في مكانه الطبيعي حيث يقوم بدوره وواجبه، وكأن من أطلق عليه النار عجز عن أن يردّ الصواريخ التي تسبَّب فيها فضربه كي يقول إنه هنا أو كي يداري ضعفا أو سوءة بدرت له من جرَّاء تصرفاته الهوجاء وعنتريته غير المحسوبة. يصرخ، فتلحّن الصواريخ المنطلقة هنا وهناك صراخه وكأن هذا

الصراخ أغنية عُرسٍ ما كتب حرفا من حروفها يوما في حياته.

يتحسس عتبة الدار في وجلٍ، فتسري بعض القيود إلى أعصاب يديه. هل رآها تسكب الماء على عتبة الدار لتقيده بما لا يطيق؟ يعاود السؤال الظهور أمامه، وكأن هذا السؤال مَعْلَمٌ من معالم المكان. أم أنه رأى القنابل والصواريخ تتساقط في أرجاء القِطاع وتفتت جسده آلاف القطع لتنثرها في الأرجاء؟

لكنه يتذكر أنهم قطعوا المياه وما هناك ماء يكفي للشرب، كما أن هذا الماء لن يتمكن من أن ينبت أجزاء جسده في تراب القطاع. تتقطع أوصاله. يجد نفسه تحت آلاف الأقدام التي تتظاهر في الشوارع دون أن ينصت لها أحد. هل رأى وزيرة تأتي من بلدها لتعلن الحرب، مخالفة لكافة المواثيق؟ أم أنه رأى رئيسا يصدر بيانا يندد فيه ويبين الموقف؟ أم أن وزيرا خرج على الناس ولم يرد على كلامها، بل قال كلاما خالف به كلام السيد الرئيس؟ يذكر أنه

وقَّع على التماس جاء إليه عبر بريده الإلكتروني للمطالبة بوقف إطلاق النار. لكن ضميره لم يسترح.

عاودته المياه المرشوشة على عتبة الدار والكرباج السوداني الذي يتبختر أمام العيون والصواريخ التي تتراقص في سماء القطاع والجثث التي تنظر إليه بعتاب وعصاته المرتخية الحائرة. رأى كل الصور معروضة أمام عينيه قبل أن يتحسَّس رقبته من خلف الأسياخ المتعامدة، فيلمس بروزا أو انتفاخا، هنا وهناك وكأن اليدين التي انهالتا على رقبته لم تكونا إلا مسامير دُقَّتْ في صفحة وجه بريء قبل أن تكتمل ليلة رأس السنة.

20 سبتمبر 2008

رتابة

كانت الدنيا ظلاما حولها. وما إن رفرف نور الفجر حتَّى ركبتْ شيطانها وأخذت تهرول بين الحقول إلى ذلك الذي يسكن بدرب النصارى، إلى الشيخ عمران بجلالة قدره. لا بد أنه سيجد لها حلا لما يؤرقها ليل نهار، لما يغلي في قلبها من ظلام، من نار تقطّع قلبها إربا كل صباح، إربا كل مساء، خرج جميع أبناء "سِلْفِها" خارج العائلة، منهم من تزوج من جهينة، ومنهم من تزوج من سوهاج، إلا واحد. كانوا دائما يطفئون نار الحق التي كانت تشعلها قبل كل زواج. ها هي بنتها على وشك البوار. هم امتلكوا كل شيء، المال والصحة والمناصب. وهي لم تمتلك أي شيء سوى دبلومٍ للبنت الكبرى ودبلومٍ للبنت الوسطى. لم تجد إلا دبلومين يتزوجاهما، وها هي تقتطع من جسدها ومن قوتها ومن أرضها لتبعث لبنتيها بالأكل....

لا يمكن أن يكون نصيب البنت الثالثة مثل نصيبهما! كيف لا يتزوجها ابن عمها؟ لا بد مِن فِعل أي شيء. لا بد أن

الشيخ عمران سيفعل شيئا. لا بد. وإن لم يفعل شيئا سأقاطعه إلى الأبد وأبحث عن شيخ غيره. كان في كل مرة يأخذ الرخيص والغالي لكي يربط هذا أو يربط ذاك. لكنهم ملاعين. كانوا بمالهم يذهبون لمن هو أقوى منه ليفكَّ ما دفعتُ فيه كل شيء. حتى الشيوخ مقامات. كانوا يفكُّون ما ربطتُه وتسلم زيجاتهم. هذا أملي الأخير. سأبيع كل شيء لكي أُعْمِيَ عينيه، سيربطه ربطا لا ينفكُّ أبدا. ها هي خطوبته الخامسة تفشل حتى الآن. لكنه فكَّ العمل الأخير، وها هو يتقدَّم لأخرى. سأفعل كل شيء، إنْ قاتلة أو مقتولة. لن يسلم مني هذه المرة. بركاتك يا شيخ عمران! أيظن أن ما دفعه في علاج زوجي سيغريني؟ سيسكتني؟ لا، لا. ما أربعون ألفا في بحر أموالهم؟ مجرد دُعَامَاتٍ زرعوها في قلبه لا غير، كأن يزرع ابني فرعين نعناع نضعهما على الشاي المغلي. ويبدو أنهم لم يسامحوا في هذه الأموال، فزوجي مات بعد العمليَّة بسنة واحدة. كانوا يقولون إن الدعامات التي غرسوها في قلبه أرجعت قلبه سليما معافى.

لكنهم نصابون، فعلوا ذلك فقط لكي يسكتوني. وأنا لا أسكتُ. أيسكتُ أحدٌ على حقٍّ له؟ أليس من المفترض أن تكون ابنتي زوجةً لأحدهم؟ له؟ ألم يأخذوا كل شيء؟ لِمَ لا يأخذونها هي الأخرى وينقلون بيتنا من حال إلى حال؟ لِمَ لا ينقلونه من حال إلى حال؟ يظنُّون أنهم بِحِيَلِهم المكشوفة سيكمِّمون عيني! وهل أنخدعُ بتلك الأموال التي يرسلونها لبنتيّ أو يعطونها لابني أو لزوجته في المواسم والأعياد والمناسبات؟ لا. لن يكمِّمَ عيني أي شيء. أنا متيقِّظةٌ على الدوام. لن أسمح لأحد أن ينهب حقَّ بنتيّ. لو كانوا قد تزوجوا بنتيّ لكانتا في راحة الآن. يتقطّع قلبي آلاف المرات في اليوم وأنا أراهما بلا أكل، بلا لبس، بلا حياة. هل يمرُّ كلُّ ذلك سدى؟ لا. إن كنتُ لَم أمتلك المال ففي الشيخ عمران قِوَّةٌ لا يمتلكونها، لن يستطيعوا مقاومتها، قوة ستقضي على كل شيء لديهم. سأجعل قلب ابنهم يتحسَّرُ إلى الأبد. سأجعله منكسرا بلا زوجة أو ابن أو أي شيء. دع منصبه يفيده....

تُسْرِعُ خطاها. ها هي اقتربت من "حسام الدين" وعليها أن تعرج يمينا إلى درب النصارى. تتذكَّرُ أختَها. ألم تكن أمُّه هي السبب في أنها لم تتزوج حتى الآن؟ عندما جاءت أمه إلى العائلة، كانت أختها في مثل سنها، ربما تزيد شهورا...

لكنها كانت في سنِّ الزَّواج. ولمَّا كانت من عائلة كبيرة ظنَّ الناسُ أننا لن نزوج أختي لعائلة أقل من عائلتها.... لأعرُجْ يمينا. ففي كل خطوة أخطوها نحو الشيخ عمران إشفاء لغليلي. كل خطوة تريحني إلى حين. لكنني لن أرتاح فعلا إلا عندما أراه يموت من الغيظ أمامي. مادامت بنتي تَظَلُّ في حضني، فليظلّ هو في حضن أمه التي أوشكت على الموت ولن يجد بعدها حضنا يضمه. فليظلّ هكذا مُعَذَّبًا، مُؤَرَّقًا، مُتَقَطِّعَ القلب إلى الأبد. لن أكتفي من الشيخ عمران الآن بالرَّبْطِ. سأجعله يفكُّ زمام عقله إلى أن يرمح في "الحماد"، فلا يعرف لنفسه خطوات، لا يعرف له مربطا. ألا يفتخر به إخوته؟ سأجعلهم جميعا يتحسَّرون عليه، يتحسَّرون

على شبابه. وسأظلُّ وراءهم الواحد تلو الآخر إلى أن تضيع عقولهم في طيَّات أعمالي، في طيَّات أسحاري، أنا التي لا أمتلك إلا بنتا الآن لأدافع عنها بكل ما لديَّ من قوة، بكل ما تدرُّه تلك القراريطُ التي أعطوها لنا، هذه الفدادين التي اقتسموها معنا بعد أن مات جدُّهم. أليسوا لديهم الأموال؟ ألم يستحوذوا على المناصب؟ لِمَ لمْ يتركوا الأرض كلها لنا؟ ألسنا أَحَقَّ بها؟ نحن لا وظائف لدينا. ابني الوحيد لم يحصل على أية شهادة. ألم يكن من الواجب أن يتركوها له ويكتفوا هم بوظائفهم ومناصبهم؟ يحبُّون أن "يكوّشوا" على كل شيء. وأين ذهبت أنا؟ أنا لهم بالمرصاد. في كل حين أنا لهم. لن أتركهم ينعمون بشيء. سأكتفي الآن بجعلهم جميعا يتحسَّرون. سأكتفي بجعلهم مغمومين مقهورين، يركبهم الهَمُّ ليلَ نهارَ لما يحدث لأخيهم الأصغر، لما أفعله أنا به. فلتنفعهم مناصبهم. فلتنفعهم أموالهم. أنا سيِّدة البيت. أنا سيِّدة الأرض. ولا بد أن أعود سيِّدةً كما كنتُ. لا بد أن يعود كل شيء لي. سأظلُّ وراءهم إلى أن يموتوا جميعا من الغيظ أو الهَمِّ ويعود

كل شيء لي. لن أتركهم يتمتَّعون بشيء. ألم يتعلَّموا جميعا من دَخْلِ تلك الأرض التي من المفروض أن تكون لنا كلها؟ لمَ لا يعطوننا الآن نصف ما يحصدون من أموال ما كانوا ليحصدوها لولا تعليمهم؟ يعبّئون أموالهم في جِوالات، لا يَشْقُونَ في الأرض موسما بأكمله حتى يحصدوها. وأنا أَشْقَى ليلَ نهارَ في تربية الفراخ، تربية الأرانب، صنع الجبن، لكي أبيع كل ذلك وأصرف منه على بنتيَّ المتزوجتين. وبعد كل ذلك يأتي هو ساعة وصوله بزوجي من مصر بعد العملية ويطلب مني جبنة قديمة! يقول إن ضغطه انخفض من السواقة طوال الطريق ويريد أن يرفعه قليلا! أنا أعطيه جبنة!!! نجوم السماء أقرب له. وهذا ما أريده. فلينخفض ضغطه على الدوام إلى أن يُدَكَّ بالأرض. وابني يعمل ليل نهار في الأرض ولا تدخل لنا أموال إلا مرتين في السنة، إلا حين تحنُّ علينا الأرض بما فيها. هل الأرضُ أرحمُ منهم؟ أيعقل هذا يا بشر؟ أن تكون الأرضُ أرحمَ من البشر؟ إن كانت قلوبهم طوبا أحمر هكذا، فأنا سأجعلها تتفتَّتُ من

الحسرة. لن أتركهم يسعدون يوما. فلأسرع الخطى إلى الشيخ عمران كي لا تتبقَّى في أيامهم لحظاتُ هناءٍ أو راحةِ بالٍ بعد الآن، كي تنكسرَ جميع قلوبهم مثل قلب زوجي الذي ادّعوا أنهم أصلحوه، ولكنه لم يظل سليما أكثر من عام. سأجعل كل قلوبهم مثل قلب زوجي. سأُحطِّمُها. سأُهَشِّمُها. لن أجعلها تعمل بعد الآن. سأميتهم حسرةً على ما فعلوه بي، لما أراه من حال بنتيّ، لما أراه من حال بنتي الجالسة بجواري لا تفارق البيت أبدا. مادام ابن عمها لم يتزوجها من سيأتي لخطبتها؟ قلبي يتحسَّرُ على بنتي، يتقطّع على بنتيّ الأخريين. سأجعل قلوبَهم تتمزَّقُ على ابنهم الذي يفتخرون به. أنا سأجعلهم لا شيء. سأردُّهم إلى ما كانوا عليه. سأجعلهم يضيعون كل أموالهم على السحرة حتى يفكُّوا ما أربُطُهم به، ولن يقدروا. سأكتب للشيخ عمران نصفَ فدَّانٍ بأكمله حتى يعملَ لهم عملا لا يفيقون منه أبدا.

25 يناير 2007

ربما وكأن

حركات وئيدة تكاد تموت على المَدَقَّات بين الغيطان. إذا ما رفعتَ رأسك قليلا، ستجد أقداما انفتحت بها بعض الشقوق. ارفع عينيك أكثر، ستجد الأرجلَ نحيلةً وضامرةً ولن تعرف للسراويل التي كانت بيضاءَ لونًا محدَّدًا. سترى "الصديري" ملتفًّا حول صدور نافرة دون امتلاء، ولو دقَّقتَ النظر لاستطعت أن تعدَّ العظامَ. وإذا طال بصرك، ستبصر القلب ينبض بشدَّةٍ وكأنه يتمرَّدُ على شيء ما أو كأنه حُمِّل بما لا يطيق. وها هو يرتجف، يهتزُّ، يتمرَّدُ، ولا يملك إلا أن يعود إلى مكانه غير راضٍ. وعندما ترفع عينيك إلى الوجه، ستصدمك التجاعيدُ التي دبَّت فيه وترعرعت وكسته بسمرة رمادية قد تستشفُّ منها أن هذا الوجه عاش مائة عام. لكن بعض العيون – بالرغم من طبقات الحزن أو الشرود التي تكسوها – ستقول لك إن هذا الوجه لم يبلغْ من العمر شيئًا، وستشي لك بدفقة حياة متجمدة في العيون ربما تحاول الإفلات من قبضات السكون والتوقف. لكن محاولاتها لا

تلبث أن تُحَاصَر بالرغم من الثقوب التي ملأت الطاقية والبَلى الذي تسرب إلى الشال الملفوف حولها.

بعض الأغنام عائدة إلى حظائرها يسوقها صوت ناي ينفطر من روح راعٍ يسير بخطوات متوانية بطيئة، كأنه لا يودُّ الرجوعَ، ولا يقدر أن يرى هُزالَ الأغنام. لكن عليه أن يرجع. فأشعة الشمس البرتقالية – التي لا تحمل برتقالا ولا ليمونا ولا رمانا – تطالبه بالعودة، خاصة وأن حمرتها طغت على اللون البرتقالي، وكأنها تصيح فيه مهدِّدةً منذِرةً، وكأنها تسوق خطاه إلى الحظيرة أو البيت الذي ربما كان صاحب "عمارة الفقراء" يحلم به لكنه مات قبل أن تظهر بوادر حلمه.

ها هو يعود وها هي القرية تستقبله بفتور وربما بلامبالاة. أول ما يصادفه شجرةُ الصفصاف على أعتاب القرية، وقد سقطت كل أوراقها وأصبحت أغصانها جافة شمطاء تضنُّ بأي شيء. ربما وربما وربما... يقولون كلاما كثيرا، قد يختلف في تفاصيله، لكن مغزاه محفورٌ في قلوب

الأهل التي اهتزت من جرَّاء الحفر. ففكَّروا في مقاومة الحفر بالحفر، لكن الأرض تبخل حتى بما أَخَذَتْه.

ستدخل القرية. لن تجد بيوتا طينية أو أعشاشا أو أكواخا. سترى بيوتا "مسلّحة" حمراءَ الطَّوب اصطفت على يد بناء ربما كان يحلم أن يجعلها قصورا أو بيوتا جميلة، ربما كان يحلم أن يرى فيها أثاثا يستر من برد الشتاء وعيون الضيوف التي قد تتلصص لتستكشف الحال. ربما كان يحلم أن تدب راحة البال ويسار الحال بين جدرانها. ربما كان يحلم أن تمتلئ الحظائر التي بناها في مؤخرة البيوت بالمواشي والأغنام. ربما كان يحلم أن... لكنه أكمل "الصبَّة" للدور الأول دون أن يستطيع أن "يَصُبَّ" الدور الثاني حيث "عزَّ" الحديد وشحَّ وطار ثمنه في أعالي الأفق البعيد. فبقيت حظيرة واسعة خالية من أي شيء إلا غنمة أو غنمتين هزيلتين، و"منضرة" واسعة بها بعض الدِّكَكِ التي تكسوها فَرَّاشِيَّاتٌ يتيمةٌ ينام عليها الأولاد والشباب بدلا من الضيوف، وإن جاء ضيف يشاركهم النوم عليها، وحجرةٌ داخلية

مفروشة بالحُصْرِ التي تنام عليها البنات. وإذا صعدت إلى الدور الثاني، ستجده أجرد من أي شيء إلا حِرَاما مفروشا على الأرضيَّة لينام عليه الحاج والحاجة وبجانبهما صندوق خشبي به بعض الأشياء القديمة التي جلبتها العروسة/ الحاجة معها ليلة دخلتها. فتلاشى معظمها مع الزمن وبقيت بعض الأشياء التي تقاوم البلى أو الكسر أو عبث الأطفال أو عيون الحاسدين الذين كانوا يجدون في زمن ولى أشياء يحسدونها. فخُزِّنَت في هذا الصندوق لتعود إليها الذكرى من آن لآخر. كانت هذه الذكرى كثيرة الحضور فيما مضى. أما الآن فما عادت النفوس إلى ذكراها، وما عادت تحتمل التذكر. ففي الذكرى حياة وعندما تشتد المقارنة يركن في النفوس اليأس وربما التمرد على ما صار. في جانب الحجرة سرير بعمدان حديدية: تلاشت الملاءة التي تكسوه أعلى العمدان وضاعت بعض الألواح الخشبية التي كانت تفرش أرضيته، ربما حزنا على المرتبة التي عبث بها الزمن كما شاء، فبقيت بعض الألواح شاهدة على سرير كان يهتز يوما ما من نبضة حياة

بين قلبين متآلفين. ولم تعد هذه الألواح تنفع في أي شيء إلا أن توضع عليها ملابس الرجل وزوجته بعد أن كبرا قليلا وشاخ قلباهما من الهم أو ضيق الحال أو رؤية أولادهما عاجزين عن الشعور بنبضة الحياة.

2000

مأتم

العيون المجهدة العائدة من الحقول تترك نظراتها المثقلة تلقي بنفسها على أعتاب البيوت. وبالرغم من أن الرموش تكاد تنطبق على بعضها – ربما تريد أن تظل هكذا للأبد – تنفتح فجأة عندما تصل إلى الرَهَبَة[9]، فلقد رُصَّت دِكَكٌ ما أنزل عليها أحد مراتبَ أو فراشيَّاتٍ. وتجمّع عليها من وصل من الحقول بوجوه بائسة يلبد فيها الوجومُ. سيستغرب الداخلُ، فلا اليوم يوم فرح في أحد البيوت، كما أن عادة الزواج تنازع الاحتضار. لا شيء يستدعي التجمع الكثيف بهذا الشكل. كل ما يمكنك أن تراه في الأوقات العادية أن تجد رجلا سحب دكة من منضرته ووضعها أمام البيت في هذا الحر ليفضفض لجاره أو يسحبان أنفاس الشيشة معا، وربما قَدِمَ ضيفٌ فيجلسون يتناقلون الأخبار أو الهموم حتى تبدأ الأفواه في التثاؤب فيلملم كل منهم أطراف همومه ويمسِّي بالخير علي الآخر داعيا له براحة بال لا تأتي،

---

[9] الرهبة عبارة عن ساحة القرية أو فنائها أو ميدانها الذي يعد البؤرة التي تنفتح عليها البيوت.

وربما يسحبون الراديو من البيت ويفتحونه بجوارهم ليسمعوا أخبار غزو الكويت من إذاعة مونت كارلو أو صوت أميركا.

لكن القادم لا يرى شيئا من ذلك، فقط الرجال مصطفون علي الدكك واجمين صامتين لا تكشف أفواههم إلا عن عباراتٍ قصيرة قد لا تكون مسموعة، والتجاعيدِ التي تملأ الوجوه عمقا والتواء وكأنها حشرجة الموت. كما أن هناك جهاز تسجيل علي طرف إحدى الدكك وصوت عبد الباسط عبد الصمد ينسلّ منه عاليا رزينا رصينا وقورا حزينا يستحثُّ الناس علي الصبر وعدم الجزع. ستدهش كثيرا عندما ترى ذلك. فلم يمت أحد بالقرية. فإذا مات أي شخص، رجلا كان أم امرأة، طفلا كان أم شابا أم عجوزا، يلقي كل شخص ما بيده سواء أكان في الحقل أم ذاهبا إلي السوق أم إلي زيارة أحدٍ بالقرى المجاورة، ويصطفُّون في الرهبة، يُحضرون الكفن والعطور من دكان عبد الحميد الزهري في القرية المجاورة، يسخِّنون الماء ويُغسِّلون الميِّتَ بعد أن ينادوا في ميكرفون الجامع عليه. وعندما يصلُ

الغائبون والأقرباء من القاهرة أو الإسكندرية أو الغردقة أو السويس أو مرسى مطروح، يستوي الميت على الحَسَنِيَّة[10] ليرتفع على الأكتاف التي تتبارى على الإمساك بأحد أطراف الحسنية الأربع وتود أن تآجر[11] وتتملَّك عدَّة قراريط في الجنة لتنعم براحة لم ترها أو ترَ جزءا منها في حياتها الأولى. وفي الطريق "يُآجِر" آخرون طمعا في الملكية الخالدة ورضا الدائم..... يفتح الجامع ذراعيه لاستقبال من كان يوما ما يأتي ساجدا أو راكعا أو مصليا علي من سبقوه. وبالرغم من أن بعض الناس في الطريق كانوا يتقوَّلون علية ويذكرون ما لا يُذكر عن الميِّت، فإنهم يقفون خاشعين متمنِّين له حُسن الثواب وترطيب الطوبة تحت رأسه في مسكنه الجديد.

عندما تفيق العين من شرودها، لا تجد أحدا قد مات ولا تجد حسنية أو كفنا، فقط تجد أولاد الحاج محمد رحمه الله بائسي الوجوه يكاد الدمع ينفطر من أعينهم، ولولا العيب،

---

[10] الحسنية قطعة أثاث يحمل عليها الميت إلى القبر.

[11] يآجر أي ينال أجرا في الآخرة هنا.

لتركوا دمعهم يهدر ويغرق الرهبة كلها. ماذا حدث؟ أينقصهم حزن أو ضيق أو ألم؟ سيميل على أحد الواقفين في الطرف. وستنشق آهـــــة يمكن أن تفجّر الجبل الغربي:

- جــامـــوســتــهم مــــــاتـــت.

جملة/ طلقة لا يمكن أن يحتملها أحد هنا، جاموسة يتيمة وحيدة تسند جدار بيت بأكمله، جاموسة تتخلى عنهم في وقت كانت بطنها قد انتفخت وأوشت بقدوم بَطْشٍ[12] يمكن أن يحلبَ بسماتٍ على الشفاه المتشققة الظامئة للابتسام، جاموسة تبخل بلبنها الدافئ الذي يشربه الصغار والكبار ويقتاتون على جبنه، جاموسة تنسحب في وقت لا يرضى أحد، حتى لو كان لا يؤمن بإله رحيم، أن ينسحب فيه ويترك أفواها مفتوحة في انتظار المطر، وما زمنك بصاحب مطر ولا تمر ولا لبن.

تتحرك الأيدي في بطء، في دفء، في فهم، تُرَبِّتُ علي أولاد الحاج محمد، يحسُّون بالأيدي، لكن شفاههم لا

---

[12] البطش هو صغير الجاموسة المولود حديثا.

تتحرك بأي حرف أو كلمة، فقط العيون شاردة، سَاهِمَة، تنظر إلي نقطة مظلمة في الغد. يحاول أحد الجيران أن يخفِّفَ من وقع المصاب، فيقول:

- وَحِّدُوه

- لا إله إلا الله

تخرج من القلوب صادقة بالتأكيد، لكنها تترك بقايا حزن متجمدة علي القلوب لا يمكن أن تذيبها حرارة الصدق:

- ونِعْمَ بالله

يقولونها أخيرا بعد أن تتسرَّبَ إلي القلوب بقايا يقين كانت متوطِّدةً في الدماء.

عندما يدرك أحد الجيران أن شدَّةَ الموقف بدأت تلين بطيئا، يدخل بيته ويخرج ببراد شاي كبير وبعض الأكواب. يبدأ في صَبِّ الشاي. يسقي أولاد الحاج محمد أولا ثم يوزع ما تبقي من أكواب علي مَن بجوارهم. يميل علي أذن ابنه ويهمس ببعض الكلمات. فينطلق ويدخل بعض البيوت. يعود

بمجموعه من أكواب الشاي الفارغة، وتبدأ الأكواب في الدوران علي الواقفين والجالسين والمتكئين علي الحوائط، رشفات لا توحي بلهفة في الشراب ولكنها تحبس بعضا من قطرات الحزن المترسبة في قاع القلوب. ربما يدور شخص آخر بعلبة سجاير. يأخذ منه من يرغب، ويحجم شخص آخر خوفا من الموقف أو احتراما له.

يقوم بعضهم ويتقدمون الواحد تلو الآخر إلى أولاد الحاج محمد، يسلِّمون عليهم سلاما رقيقا ناطقا مواسيا:

- شد حيلك يا أبا محمد
- الشدة على الله يا عم الحاج
- خيرها في غيرها
- أخذت الشر وراحت
- ربنا يعوضكم يا أبا محمد
- عليه العوض ومنه العوض يا خال

يبدو أن هذه الكلمات قد استلت بعضا من أكوام الحزن التي تراكمت فوق وجوه أولاد الحاج محمد، فها هم تنفتح أساريرهم قليلا وتبدأ أفواههم في الكلام وربما الثرثرة.

2000

أيام الفيضان

حمد "عادلُ" الله كثيرا بعد أن مضغ آخر ما تبقى في فمه من الرغيف والبيضة. دعا الله أن يوفقه لقضاء مصالح البشر الطيبين، وأن يجعل عمله المرهق هذا في ميزان حسناته. أخذ يصنِّف كومة الحجارة ويرص كل نوع بجانب بعضه البعض. تأكد من مرونة نِبَلِه الثلاث ومتانتها. ارتعش فجأة عندما سمع محرِّكَ سيَّارةٍ يئز من بعيد. أدرك في أزيزه صوتَ رشَّاشٍ يغمر مجموعة من الجنود المحاصرين فلا يبقى منهم إلا من تمكَّن من أن يلقي بنفسه في الحفرة أو من أن يُتقِن تمثيلَ الموت بالدماء المتسربة منه.

زادت رعشته، فالتقط الحجر المناسب بعد أن تأكَّد من حجم مصدر الأزيز ودخل بسرعة صار معتادا عليها في الحالة التي يستحضرها عمله هذا بالرغم من إعاقة قدمه:

- يا عادل، يا حَكَم

قالها وأطلق نِبلته كقنَّاص محترف لتضحِّي بحمولتها أمام العجلات التي تتعجَّل الموتَ على هذا الإسفلت. اهتزت

السيارة قليلا، لكن السائق "اللعين" سرعان ما تمكن من أن يعيدها إلى مسارها دون أن يسقط على الجهة الأخرى في الترعة أو يتدحرج على هذه الجهة ليصل نازفا لا يقوى على شيء إلى عادل المنهمك في المراقبة والموازنة.

ارتشف رشفة من كوب الشاي قبل أن يتمكَّنَ هذا الكوبُ من البرودة فينزل على لسانه فاترا دون أن يصعد إلى رأسه ويزيدَها تركيزًا. ارتشف رشفة أخرى وأخذ يحدِّق في الطريق ويحاول أن يسترجع بدقَّةٍ سرعةَ تلك السيارة التي سرعان ما اعتدلت وأكملت خطواتها المتخفِّفة من ثقلها وألقت هذا الثِّقل على ثقل قلبه، لتنفرد هي بالخفة والطيران القاتل على هذا الطريق، ويتجمَّعَ كلُّ ما في العالم من ثِقل ليثقل على قلبه ويرديه جريحا لا يعرف كيف يتصرف مع هذه السيارات التي تعانده، كقائد لا يلتفت إلى اقتراحات جنوده التي ستنقذ الموقفَ ويصر على خطة ستخصْخِصُ أرواحَ معظمهم وتترك من تبقّى ينزف دموعا على الأرواح الضائعة وسخطا على الأوامر الطائشة.

احتار مع هذه السيارات، خاصة وأن "صالح" رجل المرور الذي من المفترض أن يقف عند الكوبري القِبْلِيِّ لم يعد يقف هناك وترك الأمر للسائقين لينتظم كل منهم بطريقته بشرط أن يلتزم بما اتفق عليه مع هذا الصالح. فترك صالح موقعه لهم واشترى حمارا وعربة خشبية ذات صندوق واسع متين مفتوح من أعلى، وأخذ "يسرح" بها على البيوت المتناثرة أو المتجمعة في الغيطان ليبيع الفاكهة والخضار التي يأخذها عادة من مَزارع أهل السائقين بسعر معقول يضمن له ضعفَه ربحا على الأقل.

سحب عادل، وراءه نحو السقيفة، قدمَه العرجاء بسبب رصاصة قديمة في حرب لم يحس بأثرها أو تمتد نتائجها إليه. مال على البرسيم الذي حشَّه بعد مهمته الصباحية واحتضن ما استطاع بين ذراعيه. ألقاه بجانب سور حوش الأغنام، ثم مال عليه وأخذ ينثره من فوق السور في الحوش إلى أن اطمأن إلى أن كلَّ الأغنامِ وَصَلَتْهَا لقمتُها المسائيَّةُ في هذا الأصيل.

نظرت إليه زوجته أم فارس في أسى وهو يقبل نحوها ويجرُّ رجله وراءه والحزن يكاد يُسقطه أرضا. أفسحتْ له مكانا على الدكة بجوارها وربَّتت على ساقه التي تجاورها:

- ربُّكَ كبير يا أبا فارس.

وما إن أكملتها حتى بدأت في النشيج، فوجد نفسه يربت عليها ويواسيها وكتم نشيجا لا يقل عن نشيجها حُرقة. ومع انتظام الربتات، شرعت أغنية أم كلثوم في التشكل على لسانه بصوت خافت وكأنه يهمس لشخص لا يراه:

- سافر في يوم ما واعدني على الوصال وعاهدني.

تدحرجت دمعة شاردة من عين زوجته، ووضعت يدها على صدر زوجها، مرددة على أذنه باقي الأغنية:

- حطيت على القلب ايدي وأنا بودع وحيدي، وأقول يا عين اسعفيني وابكي وبالدمع جودي.

ارتمى في حضنها، وأخذ يغالب دموعه:

- من يوم ما سافر حبيبي وأنا بداوي جروحي، أتاري في يوم وداعه ودعت قلبي وروحي.

رفعتْ وجهه من على صدرها وحملقت في عينيه كأنها تبحث عن شيء ما، وعندما لم تجده، لم تستمع إلى نصيحة المطرب محمد عبد الوهاب، وقبلته في عينيه:

- طالت عليّ الليالي وانتَ يا روحي انت، لا قلت لي فين مكانك ولا حترجع لي امتى.

لم يستطع النومَ بالرغم من أنه كان يود أن تُغرقه دموعُه في بحر نوم لا يجف إلا عندما تشرق الشمس من جديد. لم تستطع صورة "صالح" أن تفارق خياله، فها هي تطارده تارة ويطاردها تارة أخرى. لم يستطع أن يقبض عليها ليعصرها بين يديه ثم يضعها على قدمه العرجاء حتى ترتاح هذه القدم وتدب فيها الحركة الجارية كالماء من جديد. سارع بحمد الله تحسُّبًا لأية فكرة قد تناوشه بعدما ألَحَّتْ عليه قدمه التي ضحت بنفسها في سبيل نصر، لا يحس به وعندما أحاطت به من كل جانب صورة "فارس" وهو غارق في

دمه على الطريق بسبب سيارة متجبِّرة تركها صالح تعبث كما تشاء بعدما ترك موقعه ليفتل من ذقون القرى طعاما لهم ويملأ جيبه بما في جيوبهم وبراتب لا يقوم بما هو مكلَّف به نظيرا له.

تداخلت أمامه صورة سيدنا زكريا وصورة زوجة سيدنا إبراهيم، ورأى أمواجا تتلاطم وسمع رعدا يدوي وشمَّ رائحة بشارة. عندما وجد أم فارس تقبل نحوه مُسرعة، تداخلت البشارة مع ضحكتها التي استغربها، فليس هناك ما يدعو للضحك ولم يحدث أي شيء اليوم يمكن أن يُضْحِكَ أبدا. لكن بشارة ولد اسمه "يحيى" ظلت عالقة بشفتيها وضحكتها وتورُّدها الذي ارتد إليها فجأة كأن كل تلك السنوات العجاف لم تكن.

- بشرى ستطرح الخير بإذن الله.

قالها تماشيا مع الموقف واستبشارا به في الوقت نفسه.

- وما المانع؟

قالها لنفسه مُطْمَئِنًّا إلى الحياة الغريبة التي بدأت تدب فيه وفي زوجته، ووجد نفسه يتذكر الطبلة التي يحتفظان بها منذ زواجهما وكاد ينسى مكانها. واجه زوجته بالسؤال عنها مباشرة:

- أين الطبلة؟

فردت عليه بنبرة تطرح تباشير الفرح وتخلو من أي استغراب كأن السؤال ينبت في أرضه تماما ولا تحرقه دموع زرفاها منذ ساعة:

- الطبلة في التليفزيون.

همَّ أن يقول لها:

- يا بنت الناس قولي كلاما غير هذا.

لكنه مادام قد سأل عن الطبلة وأصر على تجاهل الدموع، شعر بأنه لا بد أن يقبل إجابتها على سؤاله، فيبدو أن اليوم يوم عيدٍ وأن السنوات الماضية جرفتها الأمواجُ التي رآها متلاطمة وأغرقتها للأبد.

سار وراءها نحو التليفزيون ليعرف ما تقول نشرة أخبار التاسعة، بالرغم من أنه متأكد تماما من أن هذه النشرة لا تقول شيئا ولم تحمل بشرى في يوم من الأيام. مدت زوجته يدها نحو المذيعة العابسة التي تعيد الآن التذكير بأهم الأنباء:

- قلة مندسة تثير الشغب في ميدان التحرير.

لم يرَ جديدا، فهو نفس كلامهم الكاذب دوما لم يتغير:

- ما الذي حدث يا بنت الناس؟

- انظر إلى وجهها.

- كما هو كأن عليه لعنة الله.

- انظر جيدا. ألا ترى كأنه مضروب بمركوب قديم؟

- في كل مرة أشاهدها أحس بأنني أريد أن أخلع مركوبي وأضربها به.

- وها هو مركوبك على خدها.

- يبدو وجهها كأن أحدا قتل لها قتيلا.

- ألا تعكس دائما كلامها لكي تفهمه؟

- لكنها تتكلم دائما عن الإرهاب وعن الرخاء وعن الزعيم.

- ها أنت تقول بلسانك. تتكلم الآن عن القلة المندسة بدلا من الإرهاب وعن الشعب بدلا من الرخاء وعن ميدان التحرير بدلا من الزعيم.

- يبدو فعلا أن ألف مركوب نزلت على خدها.

- وعندما نعكس كلامها سيكون...

- سيكون: كثرة لا تندسُّ تزرع النظام في... ما عكس ميدان التحرير؟

- وما الذي يعرِّفُني؟ هل أنساك خروجك على المعاش العَلامَ الذي في رأسك؟

- كان اسمه ميدان العباسية، وغيَّروا اسمه تمجيدا لثورة الشرطة على الاحتلال.

- عبَّاسية الشرطة.

- إذن كلامها يقول: كثرة لا تندس تزرع النظام في عبَّاسية الشرطة.

- أأجيء بالطبلة؟

- هاتِها.

أخذتْ تُدفئ الطبلة بلمسات حانية لا تعرف الدموع ولا الحزن ولا النظر للوراء. نظر إلى نِبَلِه نظرة تكاد تتشفَّى:

- راحتْ أيامُكِ، آلاف المراكيب بدلا منكِ نزلت على خد المذيعة ومَنْ تَكْذِبُ بلسانه.

ألقى النِّبَلَ من الشبَّاكِ في الترعة التي رآها على ضوء عامود الكهرباء تفور كأنها ستعاود أيام الفيضان. عندما عاد إلى مكان التليفزيون، وجد الطبلة دافئة برغم برد يناير، ووجد أغنية تَطْرَحُ من بين شفاه زوجته، فأخذا يتناوبان على الطبلة:

وصلْ في يوم ما هاتفني على الوصال وعاهدني

حطيت على الفرح ايدي وأنا بأقابل ولادي

من يوم ما وصل حبيبي وأنا بأكشف ورودي

أتاري في يوم وصوله رويت قلبي وروحي

مدَّمَّعيش من تاني يا عين ولا تفرَّحي قصر بولدين

الولاد جايين بكرة جايين يرووا ميدان يزرعوا فدادين

وبالرغم من أن الدموع تسللتْ من عيونهما رغما عنهما، لم تكن دموعا تجرُّهما للوراء أو تُشعرهما بالانكسار أو توقفهما عن النظر للأمام. وبالرغم من الدموع أيضا، كانت في صدريهما رغبة حبيسة تنفكُّ قيودها وتدب فيها الحياة من جديد، فتطير كلمات الأغنية من الشباك لتزفَّ البشرى لغيرهما وتفسح الغرفة لأغنية قلبين يسبَحان في ترعة الحياة الفائرة من جديد.

يوليو 2010/يوليو 2011

حائط لا غير

عندما أدرك صالح رجل المرور من جولاته أن الناس في حاجة للرصاص أكثر من الفاكهة، فلقد أعلنوا أمامه مرارا وتكرارا أنهم لا بد أن يدافعوا عن أنفسهم ضد اللصوص الذين لا يمنعهم مركز شرطة ولا عمدة ولا كبير، وأن الشكاوي التي كانوا يتقدمون بها كانت تُقَيَّد دائما ضد مجهول، وأنهم يريدون أن يعرفوا مَنْ هذا المجهول الذي يتجاسر ويسطو على قوت عيالهم – عندما أدرك ذلك استقطع مستطيلا معقول الحجم من أسفل الصندوق الذي يبيع منه الفاكهة والخضار ويمثِّل الجزء العلوي من العربة الكارو، ولم يجعل بابه لأعلى، بل جعله يكاد لا يظهر ويطل على جانب الصندوق من الخلف.

سلَّم صالح الرصاصاتِ العشر ليحيى، وقال له مداعبا:

- يبدو أن أيام الثأر سترجع من جديد يا أبا الدكتور، وكله للتجار مكسب.

وربَّت على صدره متباهيا بأنه صار من التجار بعد أن عرف طريقه جيدا وأدرك أن وظيفته لن تكفيه، فترك موقعه على الكوبري، دون أن يستقيل، للسائقين يقطفون حياة المارة كما يحلو لهم. ردَّ عليه يحيى مستغربا:

- أي ثأر يا صالح؟! هل الواحد عبيط؟! الله لا يرد تلك الأيام! أخذت الكثيرَ من الأحبة.

زفر يحيى زفرة أخرج بها ما يثقل على صدره، ثم صمت قليلا كأنه يسترجع جلسته مع أحد ممن ذهبوا في نيران متبادلة قديمة، وأكمل قائلا:

- الواحد يريد فقط أن يحمي قُوتَه وقُوتَ عياله. الفلاتيَّة ينهبون الغيطان والبيوت طوال الليل ولا أحد يصدهم.

ضحك صالح ضحكة طويلة، ثم مال برأسه على يحيى هامسا كأنه يسرُّ إليه بشيء مهم لا يعرفه أحد:

- الواحد لا يضمن يا أبا الدكتور. تعرف أن هناك عائلات واطئة في البلد، والواطئ لا تأمن خِسَّتَه.

فمال عليه يحيى مقلدا حركاته وهمس له بنبرة أقرب للحياد والموضوعية وكأنه يقرر واقعا:

- ربك كبير يا صالح. أكيد إن شاء الله سيتوقَّفُ أولئك الفلاتية الذين ينهبون مواشي القرية وأغنامها ومحاصيلها عندما يُصاب بعضهم بطلقاتنا.

- ألم أقل لك؟ خذ عشر طلقات أخرى. لن تضر.

- لا. أريد أن أكمل ثمن جوال الدقيق. أعطني كيلو برتقال، وسأسدد لك ثمنه في المرة القادمة إن لم يكن ثمن الدقيق قد ارتفع كعادته.

- الصندوق كله ملكك يا أبا الدكتور.

- أي صندوق بالضبط؟

وتبادلا ضحكة مستفيضة، ثم شد صالح لجام حماره معلنا له إشارة التحرُّك، فتحركا سويا. دخل يحيى من الباب المفتوح في هذا النهار إلى بيته.

***

جلس يحيى على الدكة الموجودة في السقيفة في مدخل البيت. وضع الرصاصات بجانبه، وسرعان ما أبعدها قليلا. صبَّ لنفسه كوب شاي من الترمس الموجود على طرف الدكة، وكلما ارتشف منه رشفة نظر بطرف عينيه إلى الرصاصات في توجُّس كأنه يستغرب وجودها أو معاودة ظهورها للوجود بعد أن أوشك أن ينسى حتى ملمسها. رآها مستكينة بجانبه كنمل يبحث عن أي فتات ليحمله إلى مخزنه ومبيته، فطابت نفسه قليلا، لكن استكانتها ذاتها سرعان ما بدأت بالتدريج في عرض صور قديمة باهتة أخذت تتجسد أمام عينيه. ترحَّم على أبيه عندما رآه أمامه في لقطة تنزُّ دما، وترحَّم عليه عندما لفظ آخر كلماته في أذنه:

- لا تسايرهم يا ولدي.

لم يكن لأبيه ذنب ولم يكن طرفا في شيء، قَدَرُه أنه كان كبير عائلة، بل قبيلة، فمعظم أفراد العائلة لا يمتُّون لبعضهم البعض بصلة إلا عن طريق الأجداد البعيدين، من يمتُّ للآخر عن طريق الجد الخامس، أو العاشر، أو حتى لا

يمتُّ له أصلا، فدخل العائلة عن طريق "الانتساب" أو "الإجارة".

عندما وضع كوب الشاي فارغا على الدكة، تغيَّرت الصورة نوعا ما، وكأن الشريط الوهمي أمام عينه عاد إلى أولى لقطاته:

- شعبان الـ... لا تجوز على الميِّت سوى الرحمة، فليرحمه الله، وليغفر له، لا، هو السبب، منه لله، ما صلته هو ببيتِ "الجدي" وأصلهم حتى يعيِّرهم بعبوديتهم وأنهم كانوا خدما عند عائلات جهينة؟! صحيح أنهم يحاولون دائما المبالغة في إظهار مظهرهم الجديد ويتباهون بالعدد الكبير منهم بالشرطة، لكننا في النهاية سواسية أمام ربنا ونأكل من نفس الأرض. لماذا يا عم شعبان؟ عَمُّ مَنْ؟ والله الواحد ما عاد يذكر إن كان هو عمي أو جدي أو لا يقرب لي أصلا! ها أنت لم يعتبروك موجودا أصلا! لم يبحثوا عنك ولا عن أبنائك الساهرين كل يوم

يبيعون البوظة للشباب الفالت الذي لا يملك أصلا ثمنها، بل يسرقه من محاصيل القرى المجاورة! وما ذنبه أبي؟ أذنبه أنه علَّمنا جميعا لنجد وظيفة تُبعدنا عن هذا الكلام الفارغ؟ أذنبه أنه كبير هذا التاريخ المتضارب الذي يُسمَّى عائلة؟ راح دمُه، وراحت قضيته تلفيقا على يد بيت "الجدي"! لكنني التزمتُ بالقانون وبسيادة الدولة في النهاية. وأين القانون الآن يا أبا الدكتور؟ ومن يريد أن يقضي عمره كله متخفيا ومطاردا ويخشى القتل على يدٍ لا يراها؟! ألن يذهب إلى عمله في تلك المدرسة المفتوحة أبوابها أمام الجميع؟ أسيمنع أبناءه من الذهاب للمدرسة أو الجامعة؟ حتى البيوت هنا وسط الغيطان جدرانها مفتوحة على جميع الاتجاهات. كل شيء مفتوح ومكشوف ولا يخبئ شيئا. ومن يستطيع أن يُضحِّي بجلسة أمام البيت تحت الشمس في صباح الشتاء أو بجلسة تحت تلك الأشجار التي تتجمع على

مجرى الماء في عصر يوم صيفي؟! لكن القانون ضاع تزويرا، وضاع دم أبي! منك لله يا شعبان! اسكتي يا رصاصة، وحياة كل غالٍ عندك اسكتي! ما أنا بفارغ لك ولدلالك الماسخ الآن. الله يرحمك يا ريحانة. كنتِ تملئين البيت حياة وبشاشة، وها أنا على المعاش وحيدا والعيال في أعمالهم وجامعاتهم، منهم من يسكن البلاد البعيدة ولا أراه إلا في الأعياد، ومن يسكن البلاد القريبة ولا أراه إلا كل أسبوعين أو شهر. هكذا الحياة. ألف رحمة ونور عليك. قضاء الله. ماذا سنفعل؟ الحمد لله على كل حال. أَبَعْدَ كل هذا تنظرين إليَّ أيتها الرصاصة بعينك الداعية؟ لن أنظر لأحد بعد ريحانة، لن أنظر لأحد، أتسمعين؟ والله إن لم تسكتي سأدفنك في الطين وأغرقك بالماء حتى تنطفئ نارك للأبد! سأشرب كوبا آخر من الشاي ولن أنظر إليك.

جعلتِني أنسى أن أُسمِّي الله. بسم الله الرحمن الرحيم في أوله وفي آخره. يا الله. هيّا، سأُبعدكِ عن جانبي.

نهض من على الدكة. بحث عن قطعة قماش. تذكَّر أنه استغنى الأسبوع الماضي عن الصديري القديم الذي تآكل ولم يعُدْ "يستر"، فتوجه مباشرة إلى غرفة الغلَّة وعدَّة الأرض وقطع منه قطعة لفَّ بها الرصاصات، ثم سحب الغطاء الطيني من على التجويف الطيني الذي يمتد بالعرض للداخل في سور حوش البهائم. أخرج علبة نحاسية أوشكت على الصدأ وأخذ يمسحها بقطعة قماش متسخة ملقاة أمام الفرن الذي يشغل أبعد ركن في فناء البيت عن الحوش.

توقفت يده فجأة. لا يدري لماذا رأى صورة صالح الونش ترتسم على قطعة القماش، رأى يدي صالح تتعاونان مع يديه في مسح العلبة بكل حماس ممكن. ابتسم ابتسامة ساخرة:

- الله يخرب بيتك يا صالح يا ونش!

لكنه سرعان ما استغفر ربه، فالله لا يخرب البيوت:

- اللهم لا تؤاخذنا بألفاظنا فأنت تعلم ما نقصده.

لكنه تذكر أيضا أن صالحا أخذ يلح عليه في شراء رصاصات أُخر:

- صحيح أن الواحد يمازحه ويسامره أحيانا عندما لا يوجد شغل بالغيط، لكنني لا آمن له، فهو في النهاية تاجر، ومن ترك شغله الذي يأخذ عليه مُرتَّبا واستحلَّ هذا المرتب وترك السيارات تنهش في لحم الأطفال الذين يلعبون على الطريق – هذا الصالح لا يؤتمن، هو لا يهمه في النهاية إلا أن تروج تجارته، كما أنه ليس من جهينة ولا يهمه أهلها في شيء، جاء ليعمل في موقعه على الكوبري فتركه ومازال يأخذ راتبه، وتحول إلى التجارة. صحيح أن الله لا يفرِّق بين أحد على أساس عائلته أو ملته أو شكله، لكن صالحا في النهاية لا يختلف في دوره كثيرا عن الغجر والغوازي الذين كانوا يأتون إلى القرية، فلا تعني له جهينة شيئا سوى أنها سوق يبيع فيها

بضاعته، لا أكثر ولا أقل. وما علاقة الفاكهة والخضار بالرصاص أصلا، هذه طين وماء وهذا نار، فكيف يجتمعان؟ ومن أين يأتي بالرصاص أصلا والحكومة تعلن كل يوم في الجرائد أنها متشددة جدا في أمر حيازة الأسلحة؟ يا الله! الواحد من المفروض ألا يأخذ هذا الونش بما يقوله الشباب عنه. يقولون إنهم يرونه كل ليلة نازلا من عند قصور أولئك "الباشاوات" الذين يسكنون الجبل الغربي بحدائقهم ومزارعهم في "نزلة البرغوث". لكن معظمهم في النهاية شباب تالف يشربون البوظة طوال الليل في عِشِّة شاهر. صدق من أسماها "مَبْوَظَة" شاهر، لا أعرف إن كان أسماها كذلك على المشروب الذي تقدمه أم لأنها تجعل الشباب تالفا. كما أن هؤلاء الباشاوات لا نعرف عنهم شيئا: فقط نرى سياراتهم والسيارات التي تأتي لزيارتهم تمر علينا دون أن نرى منها شيئا. الواحد من

المفروض أن يتأكد أولا. الحمد لله على نعمة العقل. الحمد لله. أين كنا وعلى ماذا أصبحنا؟ الواحد لو مشى وراء كلام الناس كان سيكون تالفا مثل هؤلاء الشباب الآن. أي شباب يا أبا ياسر؟! ربنا ييسر لك أيامك الباقية وتنتهي من تعليم عيالك. والواحد فينا نهايته أن يلاقي ربه. الحمد لله، عشنا كثيرا، حمدنا الله كثيرا، وفي النهاية صدقة جارية أن يربي الواحد عياله تربية جميلة. وابن "الونش" يريد أن يفسد كل هذا الجمال ويبيع لي عشر رصاصات أخر!

انتبه على صوت النعاج، فرأى الماجور فارغا من الماء. استغفرَ الله على نسيانه تجديد الماء الذي تشرب منه النعاج، فترك الرصاصات والعلبة فوق السور وملأ الجردل من ماء الطرمبة وأفرغه في الماجور الذي تسارعت إليه النعاج. هزَّ رأسه ليطرد صورة صالح الونش التي تريد أن تواصل إلحاحها. ربط القماش جيدا حول الرصاصات

ووضعها في العلبة وأعاد الغطاء، فعاد الحائط حائطا لا غير.

يوليو 2010

عن المؤلف

ولد جمال محمد عبد الرؤوف محمد الجزيري في 2 أغسطس 1973 بجهينة، محافظة سوهاج، مصر. كاتب قصة وشاعر وروائي ومترجم وكاتب مسرح وناقد ودكتور جامعي. بدأ مشواره الأدبي في عام 1991. تخرج في قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب بسوهاج 1995. حصل على الماجستير من قسم اللغة الإنجليزية بآداب القاهرة 1998عن رسالة بعنوان "تحولات المنظور في شعر روى فولر1936 – 1961"، ثم على الدكتوراه من قسم اللغة الإنجليزية بآداب عين شمس عام 2002 عن رسالة بعنوان "جوانب السرد في شعر روجر ماكجوف 1967 – 1987". يعمل منذ عام 1999 بقسم اللغة الإنجليزية بكلية التربية بالسويس، جامعة السويس بمصر وانتقل بعدها ليعمل بكلية الآداب والعلوم الإنسانية في نفس الجامعة، ويعمل حاليا بقسم اللغات والترجمة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة طيبة بالمدينة المنورة. وقام في يناير 2014 بتأسيس مجموعة سنا الومضة القصصية على الفيسبوك بالاشتراك مع الأستاذ عصام الشريف (مصر) والأستاذ عباس طمبل (السودان)، وهي مجموعة تعني بشئون الومضة القصصية نظريا وتطبيقيا ونقدا وإبداعا. كما قام في شهر مايو 2014 بتأسيس دار حمارتك العرجا للنشر الإلكتروني. وقام في أكتوبر 2015 بتأسيس دار كتابات جديدة للنشر الإلكتروني مع الأديب محمود الرجبي.

الاسم بالكامل: جمال محمد عبد الرؤوف محمد

اسم الشهرة والنشر: جمال الجزيري

الجنسية: مصري

المهنة: دكتور جامعي، تخصص الأدب الإنجليزي

البريد الإلكتروني: elgezeery@gmail.com

جـوائـز

* المركز الأول في القصة القصيرة من جامعة جنوب الوادي 1995

فهرس